الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة حمص

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

الأهمية المصدرية لكتب الرحلات في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي

دراسة أعدت لنيل درجة الماجستير في تاريخ العرب والإسلام

في قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة حمص

إعداد الطالب

حسن صطوف فطراوي

إشراف الدكتور:

سلمان بدر شحادة

العام ١٤٤٦هـ / ٢٠٢٥م

تصريح

قدم هذا البحث لنيل درجة الماجستير في التاريخ اختصاص عرب وإسلام في كلية الآداب و العلوم الإنسانية في جامعة حمص بعنوان:

الأهمية المصدرية لكتب الرحلات في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي

المرشح

حسن فطراوي

DECLARATION

This research was submitted to obtain The Master’s Degree in History Of Arabs in the Faculty of Arts and Humanities at Homs University, entitled:

The Egyptian Importance of Travel Books in the Study of the Economic and Social History of the Islamic East in the Third Century AH_ Ninth Century AD

The candidate:

Hassan Satouf Fatrawi

الأهمية المصدرية لكتب الرحلات في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ٢٠٢٥/٧/١٣، وأجيزت من قبل لجنة الحكم المؤلفة من السادة:

الدكتور: عبد السلام زيدان: **عضواً**

أستاذ دكتور في قسم التاريخ- كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة حمص

....

الدكتور: سلمان شحاده: **عضواً مشرفاً**

مدرس في قسم التاريخ – كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة حمص

....

الدكتور: خليل الحسين: **عضواً**

أستاذ في قسم التاريخ- كلية الآداب و العلوم الإنسانية – جامعة حمص

....

شهادة

نشهد أن العمل الموصوف في هذه الرسالة هو محصلة بحث علمي قام به المرشح حسن فطراوي تحت إشراف الأستاذ الدكتور سلمان شحاده من قسم التاريخ في كلية الآداب و العلوم الإنسانية بجامعة حمص، وإن أية معلومات أو طرائق أو نتائج أخرى ذكرت في الرسالة قد لمست إلى مصادرها و مؤلفيها بوضوح في النص و في قائمة المراجع.

المشرف العلمي:

د. سلمان شحاده

CERTIFICATION

We bear witness that the work described in this thesis is the result of scientific research carried out by candidate **Hassan Satouf Fatrawi** under the supervision of Dr. Slman –Shahdeh from the Department of History at the college of Arts and Humanities at Homs University, and that any information, methods or other results mentioned in the thesis have been attributed to their sources. Its authors are clearly stated in the text and in list of references.

Scientific supervisor:

Dr. Salman shahdeh

بِسْمِ اللّه الرَحْمَنِ الرَحِيمِ

قال تعالى: ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيبِ وَ الشَهَادَةِ فَيُنَبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

القرآن الكريم : سورة التوبة ، الآية ١٠٥.

الإهداء

إلى سندي و مسندي و اتكائي .... أبي الغالي

إلى ملاذي الآمن .... أمي الغالية

إلى أنس أيامي .... إخوتي

إلى كل من ضحى لنعيش بسلام وحرية

إليكم اهدي هذا العمل المتواضع

شكر وتقدير

أتوجه بخالص الشكر وعميق الامتنان للفكر الذي وجه، والنفس التي أخذت بيدي ، ولم تبخل بتقديم النصح والعون لي حتى أتممت هذا العمل المتواضع، إلى **أستاذي الدكتور سلمان شـــحادة،** الذي شرفني بإشرافه على هذا البحث، وأحاطني بتوجيهه وعنايته ، وذلل كافة الصعوبات التـــي واجهتني سواء بإمدادي بالمصادر والمراجع المتعلقة بموضوع الدراسة أو بالتوجيـــه والإرشـــاد المنهجي، له مني خالص المحبة والوفاء، ولعل ما آمل فيه حين أتقدم بهذه الدراسة أن يكون بحثي ومضة من فكره، وأن يرتفع جهدي إلى مستوى فضله .

كما أتقدم بجزيل الشكر والعرفان إلى أساتذتي في قسم التاريخ، الأستاذ الدكتور عبـــد الســـلام زيدان والأستاذ الدكتور خليل الحسين أعضاء لجنة المناقشة، لتفضلهم بتحمل عناء قراءة الرسالة وقبول مناقشتها.

وأوجه الشكر إلى عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية للفرصة التي أتاحتها لنا من أجل إكمال مسيرة التحصيل العلمي.

كما أتقدم بالشكر والتقدير لكل من كان لي سنداً وعوناً في دراستي العلمية، وأخـــصَ بالـــذكر أسرتي التي يعود لها كل الفضل في دعمي وتشجيعي على البحث العلمي.

المحتويات

المختصرات الواردة في البحث :

الرمز	المعنى
د.د	دون دار نشر
د.ت	دون تاريخ
ت	توفي
ج	جزء
تح	تحقيق
ط	طبعة
م	ميلادي
هـ	هجري
تر	ترجمة
د.م	دون مكان
مج	مجلد

ملخص الرسالة

غالباً ما يواجه الباحثون الذين يدرسون التاريخ صعوبات في القاعدة المرجعية لأبحاثهم، و تتباين هذه الصعوبات حسب الفترة المعنية بالدراسية. لذلك كان هذا البحث محاولة لفتح صفحات نوع جديد من المصادر و هي التي عرفت تحت مسمى أدب الرحلة، كون هذه المؤلفات التي لم تحظى بالاهتمام المناسب من قبل الباحثين لمحاولة تقديم قراءة جديدة للتاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري، و الاعتماد على أدب الرحلة انطلق من فرضية أنها حوت أخبار غير مألوفة وبالتالي يمكن من خلالها رؤية جوانب جديدة عن المشرق لم تتوفر في كتب التاريخ التقليدية. تمت معالجة هذا الموضوع من ثلاث محاور، الأول كان للتعرف على الأوضاع السياسية والاقتصادية والنشاطات العلمية والثقافية في المشرق الإسلامي، وعن مكانة الرحلة، وعن أهم الرحالة. والمحور الثاني، لمحاولة تكوين صورة متكاملة عن الأوضاع الاقتصادية للمشرق الإسلامي من خلال أعمال الرحالة المختارين للدراسة، وتم العمل على استخلاص مختلف الجوانب الاقتصادية حسب ما وردت في مؤلفاتهم. أما المحور الثالث، فكان محاولة لتكوين صورة عن التاريخ الاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من خلال المعلومات التي تضمنتها مؤلفات رحالة تلك الفترة.

مقدمة.

يعد أدب الرحلة لوناً من الألوان الأدبية الذي ينقل فيه الرحالة العديد من العناصر الثقافية، ويعد من الحقول الخصبة التي بلغ فيها العرب قديماً شأناً كبيراً ، فهو واحد من أهم المصادر الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والحافل بالأبعاد الإثنوجرافية[1]

وتأتي قيمة الرحلات التاريخية من أنها أساساً قامت على التجربة والملاحظة المباشرة ، فهذا الأمر كان واضحاً جلياً في جميع الرحلات، فالرحالة قد اعتنوا بالمسالك وقياس مسافات الطرق، وهم بذلك جغرافيون من حيث لم يعلموا ، فقد أودعوا في مدوناتهم شيئاً كثيراً من أخبار رحلاتهم، فلم يفتهم وصف الطرق التي سلكوها وتسجيل المسافات التي قطعوها ،والمعالم التي شاهدوها، فيتجلى من كل ذلك خلاصة التجربة التي مروا بها، ومن ثم قاموا بتقديمها في نص كتابي.

على ما تقدم تم الخوض في هذا الموضوع الموسوم بـ(الأهمية المصدرية لكتب الرحلات في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي)، بغرض التنقيب في ثناياه وابرازه إلى الوجود، فكانت الدراسة لهذا الجانب التي يجزم أنها تشكل أهمية في القيمة المعرفية للمصادر التاريخية التي يجب الالتفات إليها والاستفادة منها، فكان اختيار كتب الرحلات في القرن الثالث الهجري نموذج لأهمية المصادر الجغرافية كونها رافداً مهماً من روافد التاريخ الإسلامي.

ولم يكن الاختيار لهذا الموضوع وليد الصدفة بل كان نتيجة تضافر مجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية، فالذاتية تتلخص في الميل والاهتمام بأدب الرحلة، أما الموضوعية فتتمثل في قلة الدراسات الخاصة بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية للمشرق الإسلامي، إذ كثيراً ما ينصب الاهتمام بالجانب السياسي، وهذا ما حرك النزعة في النفس لولوجه والتعمق فيه خاصة بعدما أتضح أنه موضوع بكر لا يحظ بدراسة جادة ومستقلة.

---

[1] الإثنوجرافية: تعني الدراسة الوصفية لطريقة وأسلوب الحياة لشعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات؛ الشماس (عيسى): مخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٤م ، ص١٧ .

-إشكالية الدراسة.

إن إشكالية الدراسة تكمن في أن الكثير من الرحالة العرب والمسلمين الذين كان لهم دوراً هاماً وفعالاً في رصد وتسجيل الحوادث والمعلومات في رحلاتهم، ممن كتبوا في فن الرحلة باعتبارها أسلوباً علمياً وأدبياً ، لم ينظر لهم نظرة احترام واعتراف بجهودهم من قبل الكثير من دعاة التقيد بالنماذج الغربية العلمية فقط دون سواها، وهو ما يجعل الدراسة الحالية تركز على عرض إسهامات رحالة القرن الثالث الهجري في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي، باعتبارها مصدراً تاريخياً، وإبراز أهم تسجيلاتهم ومشاهدتهم للأحداث، ومن ثم فأن أسئلة الدراسة هي :

١-إلى أي حد يمكن توظيف أعمال رحالة القرن الثالث في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي ؟

٢-من هي الجهة التي اهتمت بمثل هذه المعلومات التي قدمها رحالة القرن الثالث الهجري عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي؟ هل هي الفئة الحاكمة أم الجمهور العام من القراء؟

٣-كيف استقى رحالة القرن الثالث الهجري معلوماتهم؟

٤-هل ساهم رحالة القرن الثالث الهجري في رسم صورة متكاملة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي أم لا ؟

ـأهمية الدراسة.

إن أهمية الدراسة تتمثل في محاولة التعرف على نماذج من الأدوار التي قام به رحالة القرن الثالث الهجري في قراءة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي باعتبارها مصدراً تاريخياً، وأن مثل هذه المواضيع تأخذ أهمية بالغة، لابتعادها عن التأريخ للسلطة واهتمامها بتأثير التاريخ الاقتصادي والاجتماعي على نمو وتراجع نشاط المدن.

-صعوبات وعقبات الدراسة.

لا يخيل لأي باحث أو دارس أن يتجاهل حجم الصعوبات والعقبات التي اعترضت الدراسة بفصولها ومباحثها ولعل الشيء الذي نذكره هنا هو طبيعة الموضوع من حيث اتساعه وتشعبه مكانياً ، ثم تأتي مشكلة الوقت والزمان الذي بدأ مسرعاً بصورة كبيرة كادت أن تذهب الجهود سدى لولا رعاية الله سبحانه وتعالى في تذليل العديد من الصعوبات والعقبات، كما يمكن الإشارة هنا إلى عقبة أخرى قد تكون شكلية أكثر منها علمية وهي تباين عدد صفحات الفصول بين القلة والكثرة في هذه العقبة يمكننا أن نبرزها لسبب أو أكثر ألا وهو تباين المعلومات التي أوردها الرحالة بين جانب وآخر أو بعبارة أخرى هو أنهم أولوا جانب على آخر باهتمام أكثر، وليس من السهل تقصي كل أعمال الرحالة لاتساعها وصعوبة جمعها في رسالة صغيرة لذلك سيتم التركيز على أهم الرحالة المعروفين ، وربما يكون بقية الرحالة محور لدراسة لاحقة.

-الهدف من الدراسة.

تهدف الدراسة إلى رسم صورة متكاملة عن المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية بالاعتماد على مؤلفات الرحالة وتقصي ما فيها من أخبار اقتصادية واجتماعية للمشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري، لأن هذا النوع من المؤلفات على درجة كبيرة من الأهمية لأن مؤلفيها يعدون أصحاب مصادر مباشرة لأشخاص عايشوا الأحداث وعاينوها عن كثب، بالتالي استطاعوا نقل صورة أكثر واقعية.

-حدود الدراسة.

فيما يتعلق بحدود الدراسة فإن الحد المكاني للدراسة هو بلاد المشرق الإسلامي، وتشمل (العراق، وبلاد فارس، وبلاد ما وراء النهر حتى حدود الهند)، بينما ينحصر الحد الزماني في (القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي).

-منهج الدراسة.

أما منهج الدراسة الذي تم اتباعه فقد كان خليطاً من عدة مناهج تمثلت بالوصف والسرد التاريخي والتحليل والنقد والاستنتاج والمقارنة في محاولة عدم انتهاج جانباً واحداً فحسب، فضلاً عن التقصي للحقائق المتعلقة بدراسة الموضوع، وكل هذا مجتمعة عالجت الدراسة وتم التوصل من خلالها إلى جملة من النتائج والحقائق التاريخية في كثير من أوراق هذا العمل .

وبفضل ما توفر من مادة تاريخية ، ومناهج تم الإستعانة بها ، فقد أمكن لـم شـتات الموضـوع وتقسيمه إلى ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد وملحقة بخاتمة .

حيث تم التناول في **الفصل الأول** الذي توزع على ثلاثة مباحث الأوضـاع العامـة للمشـرق الإسلامي وظرف نشاط أدب الرحلة في القرن الثالث الهجري ، إذ تم التحـدث عـن الأوضـاع العامة للمشرق الإسلامي وذلك في المبحث الأول منه، أما المبحث الثاني فقد تم التناول فيه مكانة الرحلة في ثقافة القرن الثالث الهجري، في حين خصص المبحث الثالث عن أهم رحالـة القـرن الثالث الهجري.

وفي **الفصل الثاني** تم التناول فيه دراسة التاريخ الاقتصادي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من خلال أعمال الرحالة من خلال ثلاثة مباحث إذ تناول المبحث الأول الزراعـة أمـا المبحث الثاني فتناول التجارة في حين تناول المبحث الثالث الصناعة.

أما **الفصل الثالث** فقد تم التناول فيه دراسة التاريخ الاجتماعي للمشرق الإسلامي فـي القـرن الثالث الهجري من خلال أعمال الرحالة من خلال ستة مباحث ، فالمبحث الأول تناول المكـون الديموغرافي للمشرق الإسلامي، وتناول المبحث الثاني طبيعة العلاقات بين المكونات السـكانية للمشرق الإسلامي ، وتناول المبحث الثالث العادات والتقاليد ، وتناول المبحـث الرابـع اللبـاس والطعام، وتناول المبحث الخامس المراكز العلمية ودورها في النشاط الثقافي حسب كل إقليم، أما المبحث السادس فقد تناول الحركة العمرانية وتبايناتها ما بين منطقة وأخـرى، وأنهـى البحـث **بخاتمة** أجمل فيها أهم النتائج التي تم التوصل إليها ، ثم لا يمكن القول أن هذا البحث المتواضـع قد استوفى جميع الجوانب ، فباب البحث دائماً يبقى مفتوحاً أمام الباحثين ، ولكل عملٍ إذا ما تـم نقصان ، لكن هذا ما وفقنا الله إليه فله الحمد أولاً وأخيراً.

-التعريف بالمصادر والمراجع.

باعتبار ان كتابة هذه الرسالة، قد تمت من خلال ما توفر من نصوص مصدرية، فلا مفر من تقديم دراسة نقدية لأهم هذه المصادر، وأكثرها فائدة، والتي كانت في مجملها مـدونات الرحالـة العرب المسلمين تجار أو جغرافيين نذكر أبرزهم:

-عجائب الدنيا وقياس البلدان، لسليمان التاجر(ت ٢٣٧هـ - ٨٥١م)، تأتي أهمية المصدر من أنه قدم معلومات ثرية ودقيقة وهامة حول الأوضاع العامة للهند منذ بداية القرن الثالث الهجري.

-الأعلاق النفيسة، لابن رسته(ت٢٩٠هـ - ٩٠٢م)، وهو موسوعة كبيرة لم يصل منها إلا الجزء السابع وهو في علم الفلك والجغرافية ، وقد عرض معارف هامة حول بلاد المشرق الإسلامي من حيث اقتصادها ومجتمعها.

-مختصر كتاب البلدان، لابن الفقيه(ت ٢٩٠هـ - ٩٠٢م)، ويعد هذا الكتاب من أعلام الجغرافية العربية إذ تميز أسلوبه بالدقة ، والأصالة ، والأسلوب القوي والمشوق، فقد احتوى على معلومات قيمة وغزيرة لأنه تناول بلدان المشرق معظمها ووصف بلدانها وصفاً متكاملاً ومن الجوانب أغلبها من حيث صفات سكانه ومهنهم وطعامهم وشرابهم ، وتجارتهم إذ كان له الأثر الواضح على مدى فصول البحث.

-البلدان ، لليعقوبي(ت٢٩٢هـ - ٩٠٤م)، أن المعلومات التي أوردها تمتاز بالدقة والموضوعية، وتدل على اطلاعه على وثائق مهمة ، وأنه كان يسأل كل من يلاقيه عن بلاده في شؤونه المختلفة، وقد اعطى في كتابه (البلدان) صورة مختصرة عن أقاليم المشرق الإسلامي ، وقد أمد البحث بمعلومات قيمة عن المشرق الإسلامي ، حيث أشار إلى الزراعة ، والثروة المائية والحيوانية ، وبعض طرق التجارة، كما تحدث عن الصناعة واستخداماتها ، فضلاً عن المعلومات القيمة التي أوردها عن الحياة الاجتماعية في المشرق الإسلامي ، من حيث عناصر السكان ، وعاداتهم وتقاليدهم وغير ذلك.

-المسالك والممالك، لابن خرداذبة(ت٣٠٠- ٩١٢م)، فهو مصدر لا غنى عنه في البحث العلمي ، وقد استقى الباحث منه معلومات قيمة، خاصة في مجال التأثير الضريبي ، حيث امدنا بقائمة خراجية تمثل عهد الخليفة المأمون ، وذكر فيها خراج أقاليم ومدن المشرق الإسلامي ، وكما تحدث عن الزراعة والتجارة وطرقها ، وطرق التجارة الدولية التي يسلكها التجار اليهود والنصارى ، وتحدث عن وسائل الري وعن الصناعات، وعن أحوال مجتمعات المشرق الإسلامي في العديد من الجوانب.

-معجم البلدان ، لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ - ١٢٢٨م)، يعد أفضل مصنف ومعجم من نوعه لمؤلف عربي في العصور الإسلامية المتأخرة لاحتوائه على تدوين المدن حسب حروف المعجم لا على التقسيم الإداري، ونتيجة لسعته وتنوعه فقد ظهرت الإفادة منه لكافة فصول البحث.

-الدراسة المرجعية.

وقد افاد البحث من الكتب الحديثة إذ زودت بمعلومات تخص البحث مثل كتاب (بلدان الخلافة الشرقية) للسترنج، كذلك كتاب (الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي) لعصام الدين الفقي، وكتاب (الرحلة والرحالة المسلون) لـ أحمد رمضان أحمد ، وكتاب (تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي والديني) لإبراهيم حسن، وكتاب (تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري) لعبد العزيز الدوري ، وكتاب (الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي) لجمال الدين الكيلاني، وكتاب (الرحلات) لشوقي ضيف .

التمهيد : مفهوم المشرق الإسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

لا بد قبل الخوض في غمار الموضوع أن يتم التطرق بشيء من الإيجاز إلى ما يعني (المشرق الإسلامي) من الناحية الجغرافية.

اولاً – التسمية.

سميت هذه المنطقة ببلاد المشرق الإسلامي لأن عاصمة الدولة العباسية في ذلك الوقت كانت بغداد[١]، وأول من أطلق عليها هذه التسمية هو قدامة بن جعفر صاحب كتاب الخراج وصناعة الكتابة[٢]، ولا سيما أن بغداد كانت تمثل عاصمة الدولة العربية الإسلامية باعتبارها المركز السياسي والاقتصادي والإداري الذي تتبعه بقية الأمصار[٣]، وقد أشار المقدسي إلى أن إقليم المشرق اقليم واحد ذا جانبين يفصل بينهما جيحون[٤] لكبر الإقليم وكثرة كوره ومدنه فأصبح يتألف من خراسان[٥] وما وراء النهر[٦] أي جيحون وأن الذي عمره أخوان هيطل

[١] العلاق (كاظم ستر الخلف): إدارة أقاليم المشرق في العصر العباسي الأول ، دار الكتب والوثائق، بغداد،ط١، ٢٠١٧م، ص ١٣ .

[٢] بن جعفر (قدامة ت: ٣٣٧هـ / ٩٤٨م): الخراج وصناعة الكتابة ، تح: أحمد حسين الزبيدي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م، ص ٩٥ .

[٣] العلاق: إدارة أقاليم المشرق، ص١٣.

[٤] جيحون : هو نهر يقع في بلاد ما وراء النهر وبينه وبين بلخ ١٢ فرسخاً ، وهو يمر حتى يشق خوارزم فيصير إلى البحر الخراساني حتى يدخل الصين؛ ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني ت : ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) : مختصر كتاب البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت ، ص ٦ .

[٥] خراسان : كان هذا الاسم في أوائل القرون الوسطى يطلق بوجه عام على جميع الأقاليم الإسلامية في شرق المفازة الكبرى حتى جبال الهند ، فخراسان في مدلولها الواسع هنا كانت تضم كل بلاد ما وراء النهر التي في الشمال الشرقي ، ما خلا سجستان ومعها قومس في الجنوب ؛ لسترنج (كي) : بلدان الخلافة الشرقية ، تر : بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط٢ ، ١٩٨٥م ، ص ٤٢٣ .

[٦] ما وراء النهر: هي إقليماً من ثلاثة أقاليم يتكون فيها إقليم المشرق وتعريف ما وراء النهر يكتنفه الغموض فهذا التعريف يقصد به البلاد الواقعة عبر النهر، أي فيما وراء جيحون وعند شاطئه الأيمن؛ أبو العلا (إبراهيم عبد المنعم سلامة): في تاريخ الدولة الإسلامية المشرقية المستقلة عن الخلافة العباسية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية، ٢٠٠٥م، ص ١٦٠ .

وخراسان ابنا عالم بن سام بن نوح عليه السلام ، وهذا الجانب يسمى الهياطل[١]، ويفرق المقدسي بين مصطلحي المشرق والشرق ، فذكر أن مصطلح المشرق قصد به دولة آل ساسان[٢]، بينما قصد بالشرق فارس[٣] وكرمان[٤] والسند[٥]، ويتبين مما سبق أن التسمية أعتمدت في القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي.

ثانياً – الحدود الجغرافية.

تباينت الآراء واختلفت وجهات النظر في رسم الحدود الجغرافية للمشرق الإسلامي عند الرحالة والجغرافيين والمؤرخين العرب والمسلمين خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، فابن رسته الذي يعد أول من ذكر حدود المشرق الإسلامي في كتابه الشهير (الأعلاق النفيسة) أشار أن حدود المشرق تبدئ من بغداد، ثم يتجه نحو الجبل[٦] وأذربيجان[٧]وقزوين[٨] وزنجان[٩] .

١ المقدسي (محمد بن أحمد ت : ٣٨٧هـ / ٩٩٧م) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة ، ط٣، ١٩٩١م، ص٢٦٠ – ٢٦١

٢ آل ساسان: هم أسرة فارسية برزوا على مسرح الأحداث في الشرق الأدنى القديم في أوائل القرن الثالث الميلادي ، بعد أن أصبحت بلاد فارس تحت حكم الأسرة الساسانية ؛ العابد (مفيد رائف محمود) : معالم تاريخ الدولة الساسانية ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٩٩٩م ، ص ٣٩ .

٣ فارس: ولاية واسعة وإقليم فسيح ، أول حدودها من جهة العراق أرجان ومن جهة كرمان السيرجان ومن جهة ساحل بحر الهند سيراف ومن جهة السند مكران ؛ الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت: ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) : معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت، د.ت، ج٤ ، ص٢٢٦ .

٤ كرمان:هي ولاية مشهورة ذات بلاد وقرى واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٤، ص ٤٥٤ .

٥ السند :بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢٦٧ ؛ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٧ .

٦ الجبل: اسم للبلاد المعروفة اليوم باصطلاح العجم بالعراق؛ الحموي : معجم البلدان، ج٢، ص ٩٩ .

٧ اذربيجان :بلد واسع في بلاد فارس ومن أشهر مدنها تبريز؛ الحموي: معجم البلدان، ج١، ص ١٢٨ .

٨ قزوين: مدينة مشهورة في بلاد فارس بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً تقع في الإقليم الرابع ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٤ ،ص ٣٤٢ .

٩ زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينهما؛ الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٥٢.

وقم[١] وأصبهان[٢] والري[٣] وطبرستان[٤] ، و ثم يمر نحو العديد من المدن الهامة وهي :

جرجان[٥] ، وسجستان[٦] وخراسان وما اتصل بخراسان من التبت[٧] وتركستان[٨]، أما ابن الفقيه فيرى بأنه يمتد من أرض الصغد[٩] وجرجان حتى ينتهي إلى أرض الترك[١٠]، في حين حدده لسترنج : من مدينة السلام إلى أقصى عمل المشرق[١١].

يبدو أن هذه التحديدات هي تحديدات إدارية خاضعة للظروف السياسية والإدارية للدولة العربية الإسلامية[١٢] .

برغم الاختلاف من وجهات النظر حول تحديد جغرافية المشرق الإسلامي ، من خلال كتب التراث ، فأثر ان يتم جعل بداية المشرق الإسلامي من العراق خصوصاً في العصر العباسي ، إذ اتخذ العباسيون من بغداد حاضرة لدولتهم فكان تعبير(المشرق الإسلامي يعني العراق وبلدان

---

١ قم :هي كلمة فارسية : مدينة تذكر مع قاشان، وهي مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها؛ الحموي : معجم البلدان، ج٤، ص ٣٩٧.

٢ أصبهان: اسم للإقليم بأسره، وكانت مدينتها أولاً جي ثم صارت اليهودية، وهي من نواحي الجبل في أخر الإقليم الرابع؛ الحموي : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٢٠٦ .

٣ الري : مدينة مشهورة في بلاد فارس ، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وإلى قزوين سبعة وعشرون فرسخاً ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٣ ، ص ١١٦ .

٤ طبرستان :كانت منطقة الجبال العالية ويتألف معظمها مما يعرف اليوم بجبال البرز الممتدة في حذاء الساحل الجنوبي لبحر قزوين مما في شرق قومس وشمالها ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٤٢٣ .

٥ جرجان:مدينة مشهورة بين طبرستان وخراسان جنوب شرق بحر قزوين ؛الحموي: معجم البلدان، ج٢، ص١١٩.

٦ سجستان: ناحية كبيرة وولاية واسعة في بلاد فارس ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٩٠ .

٧ التبت : هي بلد بأرض الترك ، قيل :هي في الإقليم الرابع المتاخم لبلاد الهند ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٠ .

٨ تركستان :هو اسم جامع لجميع بلاد الترك ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣ ؛ ابن رسته (أبي علي أحمد بن عمر ت: ٢٩٠هـ / ٩٠٣م): الأعلاق النفيسة ، د.د ، ليدن ، د.ت ، مج٧ ، ص ٩٧ .

٩ الصغد: هي كورة عجيبة في ما وراء النهر قصبتها سمرقند؛ الحموي: معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٤٠٩ .

١٠ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٦ .

١١ لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص ١٤ .

١٢ العلاق: إدارة أقاليم المشرق، ص ١٤ .

الخلافة الشرقية ،أي فارس وبلاد ما وراء النهر)، باعتبار أن العراق ومنذ إنشــاء بغــداد عــام (١٤٥هــ ١ ٧٦٣م) ،التي أصبحت مركز للحركة العلمية في العالم الإسلامي، أدت دوراً رائــداً في ميدان الحضارة العربية الإسلامية ، قلَ أن أدته مدينة أخرى عبر العصور الإسلامية، إلا أن الدور الحضاري برز بشكل واضح في العصر العباسي ، فشمل كل نــواحي الحيــاة السياســية والدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية .

الفصل الأول

الأوضاع العامة للمشرق الإسلامي وظروف نشاط أدب الرحلة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي .

اولاً: الأوضاع العامة للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

شهد القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي الكثير من التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، التي كان لها الأثر الواضح في تاريخ المشرق الإسلامي، وسيكون هذا المبحث محاولة للتعرف على الإطار العام للمشرق الإسلامي من خلال رصد الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية .

أ – الأوضاع السياسية.

يشكل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي نقطة تحول هامة في التاريخ الإسلامي الذي يتقاطع مع ما عرف ضمن المصادر التاريخية بالعصر العباسي الثاني، ففيه تراكمت معظم سلبيات وإيجابيات نظم الحكم السابقة، وتركت ثمارها في جميع مجالات السياسة والاقتصاد و الاجتماع والقوى العسكرية، وكان بذلك قاعدة الارتكاز التي استندت إليها معظم حالات الانهيار والتفسخ التي عاشها المسلمين .

لكن وبالتالي وبنفس الوقت يمكن طرح سؤال مهم، هل وصلت الحضارة العربية الإسلامية إلى مرحلة النضوج من الناحية الفكرية في هذا القرن أم لا ؟ هذا ما سيحاول الحديث عنه لاحقاً .

شهدت هذه الفترة ابتعاد الأمة عن مركز الانطلاق (بغداد)، مكاناً و زماناً، وثقافةً وسلوكاً، وبمحاولات التشويه والتحريف والالتفاف على النصوص، ووضع الأحاديث لأغراض سياسية، فتفرقت الأمة أحزاباً و مللاً ونحلاً وأخذت طائفة من الكتاب والسنة تأويل يخدم أهدافها ، فأدى ذلك كله الى انشقاق في السلطة المركزية، وانفراط عقد الدولة الإسلامية الواحدة، حيث بدأ الضعف يدب في أوصال دولة الخلافة العباسية وظهور شخصيات قيادية من أسر عريقة بهذه المنطقة، اعتراها الطموح لإقامة كيانات مستقلة عن الدولة الأم، خاصة في ظل الشعور القوي بالقومية الفارسية والاعتزاز بأمجاد وتراث الفرس القدماء وحضارتهم وثقافتهم الذي بدأ يظهر جلياً خلال هذه المرحلة[1]، فظهرت في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري العديد من

---

[1] شاكر (محمود) : التاريخ الإسلامي للدولة العباسية، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٦ ، ٢٠٠٠م، ج٢، ص ١٨ ؛ بيضون (جميل) وآخرون : تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري، دار الأمل، إربد، ط ١، ١٩٨٩م، ص ١٢ .

الدول المستقلة ، ومن هذه الدول الدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥هـــ\ ٨٢٠م) والدولة الزيدية بطبرستان وجرجان والديلم[١] (٢٥٠هــ \٨٦٤م) ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤هــ \٨٦٨م)، والدولة السامانية بفارس و ما وراء النهر(٢٦١هــ \٨٦٤م)[٢]، بالإضافة إلى خروج المغـــرب والأندلس عن جسد الخلافة العباسية في بغداد[٣].

لا شك فإن عناصر سكان هذا الجزء هم الذين أقاموا هذه الدويلات، ولما كانت أكثريـــة هذه العناصر من الفرس والترك لذا يجب أن نتوقع مسبقاً قيام الفرس والترك بتأسيس هذه الـــدول فيجب أن لا نستغرب ذلك[٤] .

يلاحظ بوضوح حالة الفوضى العارمة التي مرت فيها البلاد في المشرق الإسلامي خلال العصر العباسي الثاني، وقد تجلت هذه الفوضى في تفاقم التجزئة وفي قيام كيانات سياسية مبنيـــة على حالة اجتماعية مختلفة المرجعيات والاتجاهات الدينية والسياسية والمذهبية، ولم تعد الخلافة العباسية تستمد شرعية وجودها سوى من الناحية الدينية، فأصبحت سلطتها بذلك سلطة دينيـــة لا أكثر، إذ لم يكن للخليفة من الأمر شيء سوى ذكر اسمه في الخطبة ونقش اسمه على السكة[٥].

يمكن أن يكون العامل الاقتصادي هو المحور الاهم الذي دارت حولـــه بقيـــة العوامـــل السياسية والاجتماعية فكانت الظروف المالية للدولة الإسلامية منذ بداية القرن الثالث الهجري سبباً في كثير من التغيرات التي طرأت على الدولة الإسلامية، فقد أصيبت مالية الدولة بالانهيار بسبب الحروب الأهلية الطاحنة بالإضافة للحروب الخارجية والفتن الأهلية التي زلزلت كيان الخلافة.

---

[١] الديلم : تقع في الجزء الجنوبي من جيلان وتسكنها قبيلة تعرف بالديلم ، وقد اشتهرت هذه البلاد فـــي التـــاريخ بكونها موطن بني بويه أي الديالمة ، فقد كان رؤسائهم في المئة الرابعة (العاشرة) سادة بغداد وذوي النفوذ على الخلافة والسلطة ، وقال الحموي : الديلم الموت ، والديلم الأعداء ، والنمل الأسود ، والديلم ، جيل سمو بأرضهم في قول بعض أهل الأثر والديلم في الإقليم الرابع ؛ لسترنج : بلدان الخلافة الشـــرقية ، ص ٢٠٧ ؛ الحمـــوي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٤٤ ؛ العلاق : إدارة أقاليم المشرق ، ص ٤٣ .

[٢] سيكون هناك دراسة خاصة لهذه الدول في الصفحات اللاحقة من هذا الفصل.

[٣] أيوب (إبراهيم) : التاريخ العباسي السياسي والحضاري ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص ١٦١ .

[٤] شاكر: التاريخ الإسلامي، ج ٢، ص ١٨ .

[٥] حسنين(عبد المنعم محمد): دولة سلاجقة القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د.م، ١٩٧٥م، ص ١٥.

ضمت الدولة الإسلامية منذ قيامها ، مسلمين من الشرق ومسلمين من الغرب ، وعامــل الأمويين مسلمي الشرق معاملة الموالي، أي مواطنين من الدرجة الثانية ،فلم يقبل الفــرس هــذه المعاملة لأنهم أهل حضارة عريقة ودانوا بالإسلام الذي يدعو إلـــى المســـاواة بـــين الشـــعوب، فعارضوا بني أمية وناصروا الدعوة العباسية، ورفع العباسيون في دعوتهم شعار المساواة وتحقق أحلام الفرس في المساواة بعد قيام الدولة العباسية، وقد استغل الفرس الامتيازات التـــي حصـــلوا عليها من العباسيين، وحاولوا الإستبداد بالحكم دون الخلفاء، وهذا عرضهم لاضطهاد العباســـيين فنكبت البرامكة[١] من قبل الرشيد[٢]، ونكل العباسيين ببعض وزرائهم الفرس.

لم يقبل العرب ازدياد نفوذ الفرس ، ونشأ صراع بين العرب والفرس بعد وفاة الرشـــيد، انتهى بمقتل الأمين[٣] وانتصار المأمون[٤]، وأن الصراع بين العرب والفرس أدى إلى إضـــعاف قوتهم ، مما دفع الخليفة المعتصم بالله[٥] حينئذ يفكر في عنصر جديد يعتمد عليــه فـــي حروبــه

---

١ البرامكة: أسرة يعود أصلها الى برمك المجوسي و أول من تمكن منهم في دولة بني العباس أبنه خالد بن برمك حيث أصبحت هذه الأسرة تتقلد بعض المناصب الرفيعة في دولة الخلافة ، وقد أختلف المؤرخين اختلافاً كبيراً في تعليل الأسباب التي دفعت الرشيد إلى التنكيل بهم فالطبري مثلاً قال : ((أما سبب غضبه عليه (أي على جعفر) الذي قتله عنده ، فأنه مختلف فيه))، وقال المسعودي: ((وأختلف الناس في سبب إيقاعه بهـــم))، وأن اختلفـــت المصادر التاريخية في سبب نكبتهم يمكن القول إنها كانت ضربة موجعـــة للفـــرس، الزركلـــي (خيـــر الـــدين ت:١٣٩٦هـــ /١٩٧٦م): الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط٥ ، ٢٠٠٢م ، ج٢ ، ص ٢٩٥م؛ الطبري (محمد بن جريـــر ت: ٣١٠هــــــ / ٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك ، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان ، بيروت ، ج٨ ، ص٢٨٧ ؛ المسعودي (علي بن الحسين ت: ٣٤٦هـــ /٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجـــوهر، المكتبـــة العصـــرية، بيـــروت،ج٤، ص٢٣٣.

٢ الرشيد: هو هارون أبو جعفر أبن المهدي عبد الله بن العباس أستخلف بعهد من أبيه عند موت أخيه الهادي، حكم بين عامي (١٧٠ــ١٩٣هـــ / ٧٨٦ـــ ٨٠٨م) ؛ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت: ٩١١هـــ /١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء ، دار ابن حزم ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣م ، ص٢٢٥.

٣ الأمين: هو محمد أبو عبدالله بن الرشيد، كان ولي عهـــد أبيـــه فـــولى الخلافـــة بعـــده، حكـــم بـــين عـــامي (١٩٣ــ١٩٨هــــ/٨٠٨ــ٨١٣م)؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٦.

٤ المأمون : هو عبدالله أبو العباس ابن الرشيد سابع خلفاء بني العباس ،حكم بين عـــامي (١٩٨ـــــ٢١٨هــــ / ٨١٣ــ٨٣٣م)؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء، ص ٢٣٦.

٥ المعتصم بالله: هو أبو إســـحاق محمـــد بـــن الرشـــيد بويـــع بالخلافـــة بعـــد المـــأمون، حكـــم بـــين عـــامي (٢١٨ــ٢٢٧هــ/ــ٨٣٣ ــ ٨٤١م)؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٦٤.

وغزواته من غير الفرس وهداه تفكيره إلى الاعتماد على العنصر التركي[1]، ومنذ ذلك التـــاريخ دخل في نزاع العصبية عنصر قوي جديد ، فقد كان النزاع قبل بين الفرس والعرب فأصبح بـــين العرب والفرس والترك، وأخذ التاريخ الإسلامي يصطبغ بالصبغة التركية ، وبدأت الكراهية تظهر للأتراك من جانب العرب من عهد دخـــولهم بغـــداد ، لـــذلك بنـــي المعتصـــم بـــالله مدينـــة (سامراء٢٢١هــ/ ٨٣٦م) وسكنها بعيداً عن مركز العرب، وقد أثر ذلك تأثيراً سيئاً في بغداد من حيث تجارتها وحضارتها[2].

وكان ذلك تحولاً خطيراً في تاريخ العباسيين، فقد كانوا يعتمدون كل الاعتماد على الفـــرس وكانوا أصحاب حضارة فبثوها في الحياة العربية ،أما الترك فلم يكونوا أصحاب ثقافة ولا حضارة ، إذ يقول الجاحظ عنهم ، بأنهم لا يعرفون شيء عن الزراعة والصناعة والتجارة وكانوا يقطنون الخيام ويعيشون في الصحارى[3]، لكن هؤلاء سرعان ما قبضوا على زمام الحكم و المعتصم بالله هو الذي هيأ لهم ذلك، بعد أن جعل من المدينة التي بناها لهم وهي (سامراء) عاصمة للدولة[4]، وليس ذلك كل ما صنع، فقد ولى كبيرهم أشناس[5] مصر وجعل له الحق في أن يولى عليها ولاة من قبله، فكان يدعى له فيها على المنابر[6].

عبر الفرس عن استيائهم بتكوين دول مستقلة في المشرق في نطاق الدولة العباسية، ومما يسر لهم ذلك ضعف الخلافة العباسية بعد سنة ٢٣٢هــ/٨٤٦م ، ونهاية العصر العباســـي الأول عصر الحكم المركزي لكل ولايات الدولة العباسية، لكن في العصر العباسي الثاني تغيرت هـــذه المركزية، حيث أضعف الترك الخلافة العباسية، وحلت اللامركزية محل المركزية، إذ حكم حكام

---

١ الفقي (عصام الدين عبد الرؤوف): الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباســـي حتـــى الغزو المغولي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٢٩.

٢ حيدر (محمد علي): الدويلات المستقلة في المشرق، عالم الكتب، القاهرة، د.ت، ص ١٤.

٣ الجاحظ (عمرو بن بحر ت: ٢٥٥هــ/٨٦٨م): التبصر بالتجارة، د. د، القاهرة، ١٩٧٧م، ص ٩ ،١٠.

٤ ابن الأثير(عز الدين الجزري علي بن محمد ت: ٦٣٠هــ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ ، دار الكتب العلميـــة، بيروت، ط١ ، ١٩٨٧م، مج٦، ص ٢٢.

٥ أشناس: هو غلام المتوكل والمنتسب إليه أبو علي الحسن بن إسماعيل بن أناس الأشناسي؛ ابن الأثير(عز الدين الجزري ت:٦٣٠هــ/١٢٣٢م): اللباب في تهذيب الأنساب، مكتبة المثنى، بغداد، د.ت، ص ٦٦ .

٦ ضيف (شوقي): العصر العباسي الثاني، دار المعارف ،القاهرة، ط٢ ، د.ت ، ص ١١.

الولايات ولاياتهم حكما مستقلاً ، وارتبطوا بالخلافة بروابط اسمية فقط ، مثل أقامه أسم الخليفة في الخطبة ونقشه على العملة ، ومن هنا قامت الدول المستقلة في مشرق العالم الإسلامي[١]

-الكيانات السياسية في مشرق العالم الإسلامي.

-الإمارة الطاهرية (٢٠٥\٢٥٩هـ ـ ٨٢٠/ ٨٧٢م).

تنسب هذه الدولة إلى طاهر بن الحسين[٢]، أحد أكبر قادة الدولة العباسية، وبدأ نجم هذه الدولة بالصعود حينما بدأ النزاع بين الأمين و المأمون، وقد قام طاهر بدوره بمحاربة الأمين ، وكان طاهر يطمع في ولاية خراسان ، فعندما وصل المأمون إلى الحكم أسند إليه جميع البلاد شرقي بغداد، وعلى ذلك استطاع طاهر بن الحسين أن يؤسس أول إمارة شبه مستقلة في المشرق الإسلامي[٣].

كانت علاقة الطاهريين مع الخلافة العباسية ودية يسودها الهدوء ، ورعاية حقوق الدولة في شؤون الحكم والإدارة، فمن جانب الخلافة العباسية فقد اعترفت بالطاهريين حتى ظل الحكم وراثياً في ولاية خراسان ، ولم تتأخر في تقديم يد العون لهم[٤]، أما جانب الطاهريين فقد أكدوا على التبعية والولاء للحكومة المركزية في بغداد، وقد كانت الإمارة الطاهرية تدور في فلك الخلافة العباسية ، فكانت مصلحتهم واحدة ولم يكونوا مستقلين تماما بالأقاليم التابعة لهم إدارياً، وإنما مارسوا استقلالاً داخلياً بفضل الجهود التي بذلها طاهر بن الحسين ، فقد خضعت خراسان للحكم الطاهري في عهد طاهر بن الحسين وخلفائه من بعده، ولكن ضعف الأمراء الطاهريين هو الذي عجل بسقوط دولتهم ،لأن عمال الطاهريين عاملوا الرعية بظلم واستبداد، ولهذا ثارت عليهم الرعية وتخلصوا من دولتهم سنة ٢٥٩هـ\ ٨٧٢م[٥].

---

١ الفقي : الدول المستقلة ، ص ٣٠.

٢ حيدر : الدويلات المستقلة، ص٤٣.

٣ الفقي: الدول المستقلة، ص ٣٢

٤ الطبري: تاريخ الرسل والملوك ،ج٤ ، ص٢٨٩ ،٢٩٠.

٥ صلاح (مدني): تاريخ الدولة العباسية سياسياً وحضارياً، دار المعارف، الرباط، ١٩٧٧م، ص ١٢١.

-الإمارة الزيدية (٢٥٠\٣١٦هـ ـ ٨٦٤/٩٢٨م):

أسس هذه الدولة الحسن بن زيد الذي يعود نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب[١](رضي الله عنه)، الذي تمكن من إرساء قواعد أول دولة شيعية في المشرق هي الدولة الزيدية بطبرستان ، ولعل ضعف عمال الطاهريين على هذه الولاية كان من أهم العوامل التي مهدت الطريق أمام أعداء الخلافة العباسية من العلويين للوصول إلى الحكم في هذه المناطق الشرقية .

ويبدو أن الحسن بن زيد كان قد بدأ دعوته لصالح البيت العلوي وحقه في الإمامة، ولكن هذه الدعوة اتسمت بالسرية الكاملة ، ويبدو أيضاً أن دعاة الزيدية من أتباعه كانوا قد كسبوا بعض الأنصار في طبرستان قبل مراسلات أهلها، يدل على ذلك التأييد الكبير الذي لقيه الحسن من أهالي طبرستان عند ظهوره بها . أمتثل دعاة الزيدية لأوامر أمامهم الحسن بن زيد ، وعمت مدن طبرستان الدعوة له ،فلما اطمأن الحسن بن زيد من مناصرة أهالي طبرستان له، قام بإلقاء خطبة فصيحة أعلن فيها خروجه على سلطان الطاهريين والعباسيين ،وطلب من أهالي طبرستان الانضمام إليه ،ثم بدأ يراسل دعاته بنفسه إلى بقية مدن طبرستان ، فسار أغلبها في الانضمام إليه وإعلان التبعية لهز[٢]. لم تعترف هذه الدولة بالخلافة العباسية ، فقد كانت مستقلة استقلالاً تاماً عنها ،وتمثلت العلاقات فيما بينهم بالعداء التام ،وذلك لأن الزيديين يرون العباسيين مغتصبين للخلافة وأنهم أصحاب حق شرعي لها[٣].

-الإمارة الصفارية (٢٥٤\٢٩٦هـ-٨٦٨/٩٠٨م):

الصفاريون سلالة حكمت سجستان، وهذا الإقليم يقع شرق إيران ، وهي المقاطعة التي تفصل اليوم بين إيران الحالية وأفغانستان[٤]، ومؤسس هذه الدولة هو يعقوب بن الليث الصفار[٥]، الذي حارب الترك وكل منافسيه وتولى الإمارة.

---

[١] عدوان(أحمد محمد): موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي، دار الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٠م، ص ٨٠.

[٢] أبو العلا: في تاريخ الدولة الإسلامية، ص ٦٠.

[٣] الفقي : الدول المستقلة ، ص ٦٠.

[٤] بروكلمان(كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية ،تر: نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين ، بيروت، ط٥، ١٩٦٨م، ص ٢١٦.

[٥] يعقوب بن الليث الصفار: نشأ في مدينة قرنين بسجستان في أسرة فقيرة، عمل في بداية حياته صفاراً (أي في صناعة الأواني النحاسية) ثم أنضم إلى خاله كثير بن دقاق وكونوا عصابة لقطع الطرق من شدة فقرهم ولم

يبدو أن العلاقة بين الصفاريون والعباسيون كان يغلب عليها الود أحياناً والعداء أحياناً أخرى، وكانت تصل في ودها إلى حد تبادل الهدايا والحرص على إبراز مظاهر التكريم بين الجانبين وكانت تصل في عدائها الى حد اشتعال الحرب بينهما.

هذا النوع من التعامل المزدوج ، كان في فترة ضعف الخلافة العباسية، أما في فترة صحوتها، فقد اتضحت طبيعة العلاقة بين الجانبين وخاصة عندما زحف يعقوب بن الليث إلى فارس، مما أغضب الخلافة العباسية وأرادت القضاء عليه، ثم تأزم الموقف بين الجانبين أكثر عندما زحف يعقوب بن الليث نحو بغداد ، مما أثار حفيظة الخلافة العباسية ولهذا تحركت من أجل القضاء عليه[١]، وقد استطاعت الدولة العباسية بسهولة القضاء على هذه الدولة، مع أنها وصلت إلى مرحلة الضعف[٢]، لكن ذلك لم يؤثر عليها كثيراً، لأنها تدرك أن لها حلفاء تستطيع بواسطتهم التغلب على الشدائد.

-الإمارة السامانية (٢٦١/٣٨٩هـ-٨٧٤/ ٩٩٨م):

السامانيون هم سلالة فارسية حكمت بلاد ما وراء النهر و أجزاء من فارس وأفغانستان[٣]، وقد كانت هذه الدولة من أقوى الدول الإسلامية المستقلة عن الدولة العباسية في المشرق، فقد استمر حكمها أكثر من قرن وربع (١٢٨عام)، بين عامي (٢٦١-٣٨٩هـ ٨٧٤١-٩٩٨م). ولقد قامت هذه الدولة في منطقة تسمى بلاد ما وراء النهر، واتخذت من بخارى[٤] عاصمة لها ، ولكنها ما لبثت أن امتدت الى المنطقة الإيرانية (فارس)، واستجابت لتيار الحركة الاستقلالية والقومية الفارسية[٥].

يجدوا إلا قطع الطرق سبيلاً للتعبير عن قضيتهم ورفضهم لأوضاعهم الاقتصادية والسياسية ، وعندما تحولت سجستان إلى ساحة للحروب والصراعات اضطر واليها إلى مغادرة البلاد، فوقعت في أيديهم فذاع صيت يعقوب والتف حوله الناس لشجاعته واقدامه وتواضعه؛ المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ص ١٦١ ،١٦٢ ؛ أبوستة (أمل): محاضرات في تاريخ الدول الإسلامية المستقلة، د.د، القاهرة، ٢٠٠٩م، ص ٢٣-٢٤.

[١] الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٩، ص٣٨٦؛ أبوتسة: محاضرات في تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٦-

[٢] الفقي: الدول المستقلة، ص ٣٦.

[٣] ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٩١.

[٤] بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها يعبر إليها من أهل الشط ،وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه ؛الحموي : معجم البلدان، ج١ ،ص ٣٥٣.

[٥] أبو العلا: في تاريخ الدولة الاسلامية، ص ١٥٩.

وكانت علاقة الدولة السامانية بالخلافة العباسية ،تقوم على التفاهم والود ولم تخـــرج الدولـــة السامانية عن طاعة العباسيين[1]، فقد كانوا مطيعين ومنفذين لأوامر الخلفاء العباسيين ،فقد اتبعوا سيرة الطاهريين دستوراً لحياتهم وحكمهم، ولأن الخلفاء العباسيين يعتمدون علـــيهم فـــي إقـــرار سلطانهم في بلاد المشرق، وقدم السامانيين يد العون للخلفاء العباسيين في القضاء على الكثير من المشاكل والحروب التي زلزلت القسم الشرقي من الخلافة[2]. وأن من يستقصي تاريخ السامانيين ليرى أن زوال دولتهم يرجع إلى عوامل عدة نذكر من بينها وقوع النزاع بين أفراد هـــذا البيـــت وخروج القواد وعمال الأطراف عليهم ، أضف إلى ذلك تدخل النساء والوزراء في الحكم بســـبب صغر سن بعض الأمراء[3]

واستخلاصاً لما سبق رغم الضعف الذي ظل صفة ملازمة لذلك العصر ، الـــذي لـــم يكـــن ضعيفا كله ،وذلك بالنظر إلى الدول المستقلة التي ساهمت في تقوية هذه الأمة من خلال الاعتراف بالخليفة العباسي بالدعوة إليه في مساجدها ، وهذا أمر يدل على أن الخليفة رغم حالـــة الضـــعف الإداري التي كان يمر به ، و عدم قدرته على ممارسة سلطاته الفعلية كخليفة على تلك الدول، إلا أنه ظل يحتفظ بنفوذ روحي قوي جعله صاحب المقام السامي الرفيع بين أمرائه وحكامه.

كل هذا يدفع لطرح سؤال ، ألم يكن من شأن هذا الانقسام السياسي أن يحقق نهـــوض فكـــري وثقافي من خلال تنافس هؤلاء الحكام المستقلين في جذب العلماء ومنهم الرحالة ؟

أي بمعنى أخر يجب تبيان ما هو المدى الذي ساهم به هذا الانقسام السياسي في نشاط أو خدمة أدب الرحلة؟

ومن المهم طرح فرضية أن الانقسام السياسي شكل مادة دسمة للرحالة كون كل سلطة خلقـــت لنفسها نظام سياسي و إداري واقتصادي متباين إلى حد ما عن الدول الاخرى.

---

[1] اشتياني(إحسان عباس): تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية (٢٠٥هـــ ١٢٠٨م)، تر: محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ، ١٩٨٩م ، ص ١٦٢، ١٦٣.

[2] حسن(إبراهيم حسن):تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي والديني، دار الجيل، بيروت، ط١٤، ١٩٩٦م، ج٣، ص٧٦؛ أبو العلا: في تاريخ الدولة الإسلامية، ص ٢٠٢.

[3] حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٨٨.

ب -الأوضاع الاقتصادية.

تعد منطقة المشرق الإسلامي من المناطق التي حباها الله سبحانه وتعالى بمختلف التضاريس الطبيعية، إذ تميزت بتنوع تضاريسها وتباين أنماطها الجغرافية.

فقد ازدهرت الزراعة في المشرق الإسلامي ،لأنه يضم أراضي واسعة ، ويتوفر لأراضيه الماء اللازم للزراعة، ففي بغداد أدرك العباسيون أن الزراعة تدر على الدولة بموارد دخل كبير ،فأولت الحكومة اهتماما خاصا بالقسم الأسفل من وادي دجلة والفرات، فعاد العمران إلى المزارع المهجورة والقرى الخربة في كثير من أنحاء الدولة[١].

أما في بلاد ما وراء النهر ، يوجد نهرا سيحون وجيحون ، فحينما تتجمد المياه في فصل الشتاء ،ويذوب الجليد في الأنهار على الأراضي ، فتنساب المياه بغزارة فتزهر تبعاً لذلك الزراعة[٢]، وفي شرق فارس ، نهيرات تستمد مياهها من المرتفعات ، بعد سقوط الامطار، لذلك حرص المسؤولون على الاستفادة من هذه المياه ،لذلك قاموا بإنشاء القناطر[٣].

تنوعت المحاصيل في المشرق الإسلامي، وأشهرها، الحبوب التي يحتاجها سكانها مثل القمح والشعير والأرز[٤]، وكان هناك اهتمام في زراعة الفواكه مثل السفرجل والمشمش والتوت والأعناب والتمور والموز[٥].

ظل المشرق الإسلامي ينتج ما يحتاجه من المحاصيل الزراعية ، ويواجه بعض الكوارث ويتخطى الأزمات الاقتصادية الناتجة عن الجفاف أو الزلازل[٦].

أما الصناعة فقد شهدت تقدما ملموساً في بلدان المشرق الإسلامي ،بسبب وفرة المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات ووفرة الأيدي الماهرة[٧]، واتصال المشرق الإسلامي ببلاد لها خبرة

---

[١] المطيري(فهد): التاريخ الاقتصادي للدولة العباسية في العصر العباسي الثاني، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الاقتصاد والمصارف الإسلامية، لم ينشر، جامعة اليرموك، ٢٠١٦م، ص ٩٢، ١٠٩.

[٢] المقدسي : أحسن التقاسيم، ص ٣٨٤ .

[٣] سرور(محمد جمال الدين):تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، دار الفكر العربي، د.م ، د.ت ، ص ١٢٩، ١٣٠.

[٤] لسترنج :بلدان الخلافة، ص٤٢٨- ٤٨٠.

[٥] سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية، ص١٣١- ١٣٣.

[٦] لسترنج: بلدان الخلافة، ص١٤٩- ٤٦٤.

[٧] عدوان :موجز في تاريخ دويلات المشرق، ص١١١.

صناعية كبيرة مثل الهند والصين[١]، وكان في بغداد عدد كبير من دور الصناعة وقد قيل أنه كان بها أربعمائة رحى مائية وأربعة ألاف معمل للزجاج[٢].

وازدهرت في المشرق صناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها، ففي شرق فارس صـــنعت المنسوجات القطنية[٣]، واشتهرت طبرستان بصناعة السجاد الطبري والبسط الحســـان، وبلغـــت صناعة المنسوجات الحريرية درجة كبيرة من الرقى في العراق وفارس[٤].

عرف المسلمون سر صناعة الورق من الصين[٥]، وقد كثرت فيها أشجار الكاغد ،التي يصنع من لبه الورق، وانتقلت هذه الصناعة إلى سمرقند[٦]، ومن سمرقند انتقلت صناعة الـــورق إلـــى مدن المشرق الإسلامي ، وبالتالي إلى الدولة الإسلامية الكبرى[٧]، فتقدمت صناعة الورق وفـــك احتكاره وبخس ثمنه[٨].

وكان المشرق الإسلامي مصدراً هاماً للمعادن، لذلك كثرت فيه الصناعات المعدنية فازدهرت في المشرق الإسلامي صناعة المعادن الثمينة والجواهر على اختلاف ألوانها وأشكالها البراقة[٩].

وقد ترتب على ازدهار الزراعة والصناعة وانتعاشها أن تقدمت التجـــارة ونمـــت وقطعـــت خطوات كبيرة، فالتجارة الداخلية، مركزها الأسواق وتضم هذه الأسواق عـــدداً مـــن الـــدكاكين

---

١ الفقي: الدول المستقلة، ص ٢٦٥.

٢ الدخيل(سليمان): الفوز بالمراد في تاريخ بغداد، دار الآفاق العربية ،القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ص ٢٧.

٣ متز(أدم): الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، تر: محمد عبد الهادي أبو زيد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، د.ت، مج٢، ص٣٥٥، ٣٥٦.

٤ الفقي: الدول المستقلة، ص ٢٦٦.

٥ الصيني (بدر الدين): العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٠م، ص٢٤٣.

٦ سمرقند: يقال لها بالعربية سمران قيل: أنه من أبنية ذي القرنين بما وراء النهر، وقيل أن سمرقند من بناء الإسكندر؛ الحموي :معجم البلدان، ج٣، ص ٢٤٧، ٢٤٨.

٧ الفقي: الدول المستقلة، ص ٢٦٦.

٨ متز:الحضارة الإسلامية، ص ٣٦٥.

٩ سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٣٨، ١٣٩.

المغطاة ،وتستمر حركة التجارة من الصباح إلى المساء وكان لكل سوق مراقب يتبع المحتسب، يتابع حركة البيع والشراء ، ويتابع صحة الموازين والمكاييل[1].

أما التجارة الخارجية ،فكان تجار بغداد يفدون بكثرة على مدن الهند للتجارة[2]، وكان التجار المشارقة يفدون إلى الهند محملين ببضائع المشرق ويعودون من الهند محملين بمنتجاتها مثل التوابل والمنسوجات والمعادن، وكانت القوافل تنقل البضائع الهندية من منطقة السند داخل بلاد فارس، عن طريق سجستان، وإلى الشمال تنقل قوافل بلاد الهند بضائعا عبر هضاب أفغانستان الشاهقة، وهناك تتجه القوافل من ناحية الغرب إلى خراسان.

أما عن الطرق التجارية التي كانت تمر بالمشرق فهي، الطريق التجاري بين بلاد الروس و المشرق عن طريق بحر قزوين[3]،والطريق التجاري الذي يصب من مصب نهر السند نحو فارس ، والطريق البري من غرب اوروبا عبر الأندلس وبلاد المغرب ومصر إلى بلاد الشام والعراق وفارس والهند والصين[4]. وحري بنا التطرق إلى الإدارة المالية ، فقد كان لكل دولة من دول المشرق بيت للمال وله دخل منصرف[5]، والدخل يأتي من الجزية التي يؤديها أهل الذمة[6] (اليهود والنصارى)، ويأتي أيضاً من ضريبة الخراج التي تفرض على الأراضي الزراعية ومن الزكاة، كما شكلت المصادرات دخلاً كبيرا للدولة وكذلك الضرائب على الدور والتجارة[7].

ولا يفوتنا أن ننوه عن بعض الأزمات والأحداث التي وجدت في المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري، منها الثورات واضطراب الأوضاع السياسية والفساد الإداري والمالي والأزمات المالية، إضافة إلى الكوارث الطبيعية كالزلازل والفيضانات والأمراض والأوبئة.

---

[1] الفقي: الدول المستقلة، ص ٢٦٨.

[2] الدوري(عبد العزيز): تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، د.ت ، ص ١٧٣.٣

[3] بحر قزوين: هو بحر طبرستان وجرجان وأبكون كلها واحد، وهو بحر واسع عظيم، ويسمى أيضاً بالخرسانيوالجبلي والخزر؛ الحموي: معجم البلدان، ج١، ص٣٤٢.

[4]. الفقي :الدول المستقلة ،ص ٢٦٩ ؛ سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ١٣٨.

[5] الفقي: الدول المستقلة، ص ٢٧١.

[6] بن جعفر :الخراج وصناعة الكتابة ، ص ٢٢٥ .

[7] الفقي: الدول المستقلة، ص ٢٧١.

وقد ترتب على هذه الأزمات والأحداث عدد من النتائج الاقتصادية منهـا شـيوع ظـاهرة المصادرات التي كانت منتشرة في تلك الفترة .

وعليه فبلاد المشرق الإسلامي تبعاً لما ورد أعلاه هي منطقة ذات نشـاط اقتصـادي واسـع ومتنوع تميز بنفس خاص ميزه عن غيره بوجود تنوع واختلاف تضاريسـي وجغرافـي بـين مناطقه، وإطلاله على طرق تجارية اعتبر من خلالها أنه حلقة وصل بين الشرق والغرب.

وهنا يمكن طرح السؤال التالي، ألم يلعب هذا التنوع دوراً في ايجاد مادة بحث هامة للرحالة ؟

هذا ما سيتم الحديث عنه لاحقاً....... .

ت- النشاطات العلمية والثقافية.

شهد المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري نهضة علمية وثقافية لم يشهدها الشرق مـن قبل ، حتى أصبح كثيراً من الناس طلاباً للعلم وأنصاراً للأدب، وقد تميزت عدة مدن فـي هـذا العصر بقوة الحركة العلمية والثقافية مثل البصرة والكوفة وبغداد في العراق ،وأصبهان والري في فارس، وبخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر.

عدت البصرة والكوفة من أهم مراكز العالم الإسلامي ثقافياً وعلمياً بتلك الفترة، لأنها كانـت من أولى المدن التي استقر فيها العرب المسلمون ونبغ منهما الكثير من العلماء والفقهاء ، ومـن أشهر علماء هاتين المدينتين ، أبو الأسود الدؤلي الذي اشتغل بالنحو[١]، وعمرو بن بحر الجاحظ البصري[٢]، الذي عرف بحرية الفكر والميل إلى عقائد المعتزلة[٣]، ومن كتبه: البيـان والتبـين،

---

[١] ابن النديم(محمد بن اسحاق ت:٣٨٥هـ/٩٩٥م): الفهرست، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص ٥٩.

[٢] سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ٢٠٣.

[٣] المعتزلة: في اللغة، هي مأخوذة من اعتزال الشيء وتعزله بمعنى تنحى عنه، ومن تعازل القوم بمعنـى تنحـى بعضهم عن بعض، وكنت بمعزل عن كذا وكذا ،أي في موضع عزلة عنه، وعلى ذلك فالأعتزال معناه الأنفصال والتنحي والمعتزلة هم المنفصلون؛ ابن منظور(محمد بن مكرم ت:٧١١هـ/١٣١١م): لسان العرب ،دار صادر، بيروت، د.ت، مج١١، ص٤٤٠.

وكتاب الحيوان ، وله رسائل مختلفة طبعت تحت اسم (رسائل الجاحظ)، وهي تتناول موضوعات شتى[١].

وقد احتفظت البصرة بمكانتها العلمية حتى القرن الرابع الهجري، فكثرت بمساجدها حلقات العلماء والأدباء، كما نشطت في هذه المدينة دراسة الفلسفة.

أما فيما يتعلق ببغداد، فأنها أصبحت منذ أواخر القرن الثاني الهجري ، وبداية القرن الثالث الهجري، مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية ،ومن العوامل التي ساعدت على ذلك ،اهتمام الخلفاء وكبار رجال الدولة الإسلامية بنقل الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية[٢]، ونضج ملكات المسلمين أنفسهم في البحث والتأليف ،وتشجيع السلاطين والأمراء ورجال العلم والأدب[٣]، يضاف إلى ذلك كثرة مصانع الورق ،ونشاطها، ورخص أثمان منتجاتها، وقد أدى وجود الورق والكتابة فيه ،إلى نشوء صناعة الوراقة، وهي نسخ الكتب وتصحيحها وانتشار دكاكين الوراقين ،وقد أدت هذه العوامل مجتمعية إلى خلق نهضة ثقافية وعلمية تضاهي أمم العالم.

كانت معاهد الثقافة تتمثل في المساجد ،حيث كان علماء التفسير والحديث يتخذونه مقراً لهم[٤]، ثم أضيفت إليه المدارس والمكتبات، ومن أشهر المدارس (بيت الحكمة) التي أمدها العباسيون بمختلف الكتب[٥].

وقد نمت في هذا القرن الحركة الفقهية في بغداد، وظهر كثير من المجتهدين ، ونبغ فيها أيضاً العديد من مؤلفي الأدب، وظهر علماء في علوم القرآن والنحو واللغة والفقه والمذاهب.

---

[١] حسن(حسن علي) ؛ سالم (عبد الرحمن): العصر العباسي في العراق والمشرق ١٣٢- ٦٥٦هـ ، شركة جزيرة العرب، القاهرة، د.ت ، ص ٩٥.

[٢] سرور:تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص٢٠٥، ٢٠٦.

[٣] حسن: تاريخ الاسلام، ج٣، ص٣٣٩.

[٤] بيطار(أمينة): تاريخ العصر العباسي، منشورات جامعة دمشق، دمشق، ط٤، ١٩٩٧م، ص ٣٧٦.

[٥] الطائي(سعاد هادي حسن) ؛العنبكي (شيماء فاضل عبد الحميد): دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي ق٣-٧هـ ٩١-١٣م ،دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، ط١، ٢٠٢٠م، ص ٨٢.

كان لاستقلال الأقطار الإسلامية في الشرق أثر كبير في خلق نهضة ثقافية بها، ذلك أنه بعد أن كانت بغداد مركزاً للعلوم والأدب ،ظهرت مراكز أخرى للثقافة في الدول المستقلة ،تنافس حاضرة الخلافة في تجميل موطنها بالعلماء والأدباء وتتفاخر بهم وتغدق عليهم الأموال[١] .

كانت أصبهان والري من مراكز الثقافة في شرق الدولة الإسلامية ،وقد نبغ في هاتين المدينتين كثير من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة والأدباء[٢].

ومن مراكز الثقافة الإسلامية في الدول المستقلة بالمشرق(بخارى)، التي اتخـذها السـامانيون حاضرة لهم، ونبغ في هذه المدينة الكثير من العلماء والأدباء، ولا يغيب عن الذهن أن أمراء

الدولة ورجالاتها من الذين اهتموا بإقامة المدارس ، حتى قيل أن عدد المـدارس الجامعـة فـي بخارى على نظائرها في كل مدن أسيا[٣]، كما اشتهرت سمرقند بالعلوم والفنون وأخرجت العديد من رجال الحديث والفقه[٤].

ويستخلص مما سبق أن مدن المشرق الإسلامي كانت مركز إشعاع علمـي كبيـر وتفاعـل حضاري، وليست مجرد مقر للحكم والسياسة، وذلك يعود إلى اهتمام أولى الأمر بالعلم والعلمـاء وكثرة المراكز العلمية في جميع حواضر المشرق الإسلامي، وسيكون من شأن كل هذا أن ينعكس على طبيعة المادة العلمية التي حوتها مؤلفات الرحالة في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي.

ثانياً: مكانة الرحلة في ثقافة القرن الثالث الهجري.

أ-عوامل نشاط أدب الرحلة.

الرحلة، هي ظاهرة حجزت لها مكاناً هاماً في الحراك الثقافي الإسلامي، وهي سلوك إنسـاني عرفه منذ أن دأب على الارض متحدياً كل الصعوبات ،ومتجاوزاً كل الوقائع ، وهناك نماذج عدة شاهدة على ذلك ، ويمكن تحديد عوامل نشاط أدب الرحلة في القرن الثالث الهجري فـي النقـاط التالية:

[١] سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤ .

[٢] حسن: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٣٤٠ .

[٣] عدوان: موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي، ص ١١٥ .

[٤] سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، ص ٢١٩.

-سياسياً : نتيجة لاتساع رقعة الدولة العربية الإسلامية من المحيط الأطلسي غرباً حتى الصين شرقاً[1]، حتم على الخلفاء والحكام المسلمين إرسال السفارات إلى البلاد المجاورة لهم أو البعيدة لتبادل الرأي وتوطيد العلاقات أو لمناقشة شؤون الحرب أو السلم أو تمهيدا لفتح أوغزو[2].

وكان الوفد بمثابة الناطق باسم الخليفة أو الملك أو السلطان وله صلاحية إجراء المفاوضات وعقد المعاهدات وإبرام الهدنة والصلح[3]، وهذا النوع من الرحلات قد يكون بهدف التجسس والاستطلاع ، كرحلة سلام الترجمان[4]، عام ٢٢٧هـ \ ٨٤١م، والتي كانت بتكليف من الخليفة الواثق بالله[5] قصد معرفة حقيقة سد الصين الكبير الذي يقال أن الإسكندر بناه بين العالم القديم وديار يأجوج ومأجوج[6].

-اقتصادياً : اتسع نطاق التجارة عند المسلمون في العصور الوسطى، ولم يكتفوا بالارتحال في البر وفوق أديم الصحراء ، بل لم يثنهم هول البحر من ركوبه والإتجار على شواطئه وموانيه بل ظهر منهم المعلمون المهرة والتجار الحاذقون[7]، وأصبحت تجارتهم عالمية طالت اراضي نائية وبعيدة عن أراضيها، ذلك أن تشريعات الإسلام نظمت بشكل ممتاز ودقيق العمل التجاري وشاركت في تنشيطه إلى حد كبير[8].

---

[1] أحمد(أحمد رمضان): الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي ،جدة، د.ت، ص٧، ٨.

[2] قنديل(فؤاد): أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٠.

[3] الكيلاني(جمال الدين فالح): الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، دار الزنبقة للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت ، ص ٤٤.

[4] سوف يكون هناك ترجمة خاصة بسلام الترجمان ورحلته في الصفحات اللاحقة من البحث.

[5] الواثق بالله: الواثق بالله هارون، ابن المعتصم بالله بن الرشيد ولي الخلافة بعهد من أبيه وحكم بين عامي ٢٢٧-٢٣٢هـ /٨٤١هـ ٨٤٦م ،توفي سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٧٠ .

[6] يأجوج ومأجوج : قيل: إن يأجوج ومأجوج أبنا يافث بن نوح عليه السلام ، وهما قبيلتان من خلق جاءت القراءة فيهما بهمز وبغير همز، وهما اسمان أعجميان ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٣، ص١٩٧؛ ضيف(شوقي): الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤، د.ت ، ص ٩.

[7] أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٣.

[8] الكيلاني : الرحلات و الرحالة، ص ٤٦ .

ولم يكتف المسلمون بالارتحال من أجل التجارة إلى شرق الدولة الإسلامية بل تطلعوا إلى غرب العالم المجهول[١]. إضافةً إلى ذلك قد يكون الارتحال هرباً من الغلاء وسعياً وراء الرخص واليسر والوفرة أو للعمل[٢].

-إدارياً : جاءت عملية الفتوح الإسلامية بمثابة رحلة أو رحلات قدمت للعرب وللمسلمين تجارب ومعارف جديدة، وخلقت ظروف اقتضت الرحلة والبحث في أحوال البلاد المفتوحة والتعرف التام عليها تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة وتسهيل مهمة الولاة[٣].

فالرحلة الإدارية فرضتها ظروف البلاد، إذ اقتضت ضرورة الحكم والإدارة وتقدير الثروات وحجم الضرائب ،أن يكلف الحكام بعض الاشخاص بالقيام برحلات تفقدية لجمع البيانات والحقائق وتقديم التقارير[٤].

ويعد نظام البريد من أول النظم الادارية التي دفعت وشجعت المسلمين على الرحلة منذ نشأة الدولة الإسلامية[٥]، فمنذ اللحظة الأولى التي غادر فيها الرسول(ﷺ)، بصحبة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) ، فراراً من بطش قريش ، وفي الليالي المظلمة التي مكثا بالغار كان يأتيهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام شاب فطن رسولا يأتيهما بأخبار قريش يوما بعد يوم[٦]، وهكذا كان أبي بكر أول ساع للبريد في الإسلام[٧].

وقد نضجت النظم الادارية أكثر في عهد الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) وخرجت من معناها البدائي ، فدون الدواوين لحفظ كل ما يتعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن

---

١ أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٣.

٢ قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ٢٠ .

٣ حسين(حسني محمود): أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس ، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م. ص ١٠ .

٤ الدوري(عبد العزيز): النظم الإسلامية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٣٧- ١٥٥ .

٥ أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٨ .

٦ سعداوي(نظير حسان): نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٣م ، ص ٤٢.

٧ أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٨ .

يقوم بها من الجيوش والعمال[1]. وعليه، عنيت الدولة بنظام البريد فمهدت له الطرق وشيدت له المحطات وأقيمت على الطرق معالم لتبين المسافات[2].

وبانتشار البريد في سائر أنحاء الدولة الإسلامية أدى إلى الاهتمام بالطرق وأخبار البلاد والعباد فكثرت الأسفار وازداد عدد الرحالة حتى وصلت رحلات المسلمين إلى الهند والصين[3].

علمياً : طلب العلم فريضة على كل مسلم وأول آية انزلها الله تعالى هي﴿ اقرأ باسم ربك الـــذي خلق ﴾[4]، ومن الطبيعي أن تكون الرحلة من أهم الوسائل لطلــب العلــم فـــي أوائــل العصـــر الإسلامي، فقد كانت الكتب نادرة، وكانت الدراسة العملية مقام المراجع والمؤلفات اليوم، وفضلاً عن ذلك، فقد تعددت مراكز الثقافة في ديار الإسلام فكان رجال العلم ينتقلون من إقليم إلى آخـــر يدرسون على مشاهير الأساتذة ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدثين واللغـــويين وكـــذلك الأطبـــاء والفلاسفة والرياضيين[5].

ولما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي، حرص الخلفاء على معرفة أجنـــاس دولتهم، وطرق التحكم فيها، مما جعلهم يهتمون اهتماماً خاصا بصورة الأرض وما احتوت مـــن بحار وأنهار وجبال وممالك وغير ذلك من معلومات يتحتم معرفتها ، لذلك قام الخلفاء بترجمـــة بعض العلوم إلى العربية وخاصة الفلك، مما له اتصال بعلم البلدان.

وقد أدت حركة الترجمة هذه إلى نهضة علمية كبيرة في جميع العلوم العقليـــة ،وظهـــر فـــي العصر العباسي أكثر من اتجاه، فقد وجد في بادئ الأمر الاتجاه الرياضي الذي عني في المقـــام الأول بعلم الأطوال والعروض، ومن ثم سمي هذا الاتجاه بالجغرافية الرياضية وتقويم البلدان،أما

---

[1] الماوردي(علي بن محمد ت: ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م): الأحكام السلطانية ، تح: أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م. ص ٢٩٧.

[2] أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٩.

[3] أيوب : التاريخ العباسي ، ص ٢٧٥ .

[4] القرآن الكريم : سورة العلق، الاية١ .

[5] حسن(زكي محمد): الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م، ص٧، ٨ .

الاتجاه الثاني، فقد اهتم بوصف المسالك والممالك والعجائب والرحلات ولذا سـمي بالجغرافية الوصفية[1].

دينياً : ويتمثل في حث القرآن الكريم المسلمين على التأمل في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وحركة الشمس اليومية ، وتغير أوجه القمر والتعرف على الأماكن والنظر في مظاهرها والبحث عن مكوناتها. يقول تعالى:﴿ لإيلاف قريش ۞ إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾[2]، وقوله تعالى :﴿ ولقد بعثنا في كل أمةٍ رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾[3]، وقوله تعالى :﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الأخرة إن الله على كل شيء قدير﴾[4] وقوله تعالى أيضاً:﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾[5].

ولعل من أهم بواعث الرحلة وأعظمها شأناً عند المسلمين تأدية فريضة الحج إلى بيت الله الحرام ،وزيارة قبر الرسول الكريم (ﷺ)، وقد سجل النابهون من هؤلاء الحجاج مشاهداتهم وارتساماتهم وأحاسيسهم وكذلك الطرق والدروب التي مروا بها وسلكوها والأحداث التي صادفوها ، في مصنفات عرفت بكتب الرحلة، وكان الحاج يجني من رحلته الى الحجاز فضلاً عن تأدية فريضة الحج فوائد جمة[6]، منها الألتقاء بمعظم علماء الدين وفقهاء العالم الاسلامي والزهاد[7].

اجتماعياً : كان تتبع أخبار القبائل ومعرفة أنسابها ولهجاتها إضافة لمعرفة عاداتها وتقاليدها سبباً في تنشيط الرحلة والرحلات الإسلامية[8]، وذلك نتيجة اهتمام العرب المسلمون بوصف البلاد التي

[1] أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٢– ١٣ .
[2] القرآن الكريم: سورة قريش، الآية١ ،٢.
[3] القرآن الكريم: سورة النحل ، الآية ٣٦ .
[4] القرآن الكريم: سورة العنكبوت، الآية ٢٠ .
[5] القرآن الكريم : سورة الحج ، الآية ٤٦ .
[6] أحمد :الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٣ .
[7] الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٨ .
[8] الريامي(كمال بن محمد): مشاهير الرحالة العرب، كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط١ ، ٢٠١٣م، ص ٣ .

دخلت مع فتوحاتهم في حوزتهم[١].

إذ كان للرحالة العرب والمسلمين اهتمام بالأسفار والتجوال في مختلف أنحاء العالم الإسلامي لجمع معلوماتهم القائمة على المشاهدة والتحقيق الشخصي مما يزيد من قيمة المعلومات التي يوردونها[٢].

ونتيجة للمدونات الكثيرة التي تركها لنا الرحالة العرب والمسلمين في العصر العباسي فأنها اكتسبت قيمة خاصة وأمدتنا بمعلومات قد لا نجدها في كتب التاريخ من حيث الوصف الدقيق لنمط الحياة وتصويراً لأرض الحضارات التي وطأتها أقدام الرحالة وعايشها بما تحوي من الأخبار وعادات الأمم وأخلاقهم [٣] .

ومما سبق بيانه وتفصيله نجد أن العوامل متعددة لممارسة أدب الرحلة ، وقد لانعدم أن نجد أسباباً أخرى للارتحال كالسخط على الأحوال وضيق العيش أو الهروب من عقوبة ، ويمكن القول أنه مهما كانت الأسباب، فإن السفر جامعة، تحفل بالدروس والعبر وتشحذ بالعلم والمعرفة ، وهي سبيل للتعرف والتلاقي، كما انها كانت وسيلة التواصل الأقوى في التعرف على الأخر.

-كل ما ذكر سابقاً مهد لوصول العرب المسلمين في القرن الثالث الهجري إلى حالة النضوج وأصبحت الرحلة جزء لا يتجزأ من ثقافة الحضارة الإسلامية .

---

١ ضيف: الرحلات، ص ١١ .

٢ الكيلاني: الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٨ ، ٤٩ .

٣ الهروط(بلال سالم): صورة الأخر في أدب الرحلات الأندلسية، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ، لم ينشر، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨م ، ص ٥٧ .

ب- أنماط الرحلة.

للرحلة أنماط عديدة ولها العديد من الغايات، فهي نشاط واسع جداً وضروري في الآن ذاته لكل شخص ، وتصنف الرحلات بحسب الغرض منها والدافع لها، وتشمل ما يلي:

-الرحلة الدينية : هي رحلة سفر إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة[١]، أو زيارة الأماكن المقدسة أو للرباط والجهاد في سبيل الله[٢]، ورحلة الحج فريضة على كل مسلم ، تجاوبا لإرادة الله في ركن من أركان الاسلام[٣].

قال تعالى: ﴿ فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان أمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين﴾[٤]، وقوله تعالى :﴿ وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق ﴾[٥].

وصحيح أن الخروج من هذه الرحلة فيه امتثال لإرادة الله ، ولكنه الخروج الذي جاء مشروطاً بالقدرة ، ومبنيا على الاستطاعة المادية والصحية والاجتماعية ، ومع ذلك يتشوق كل مسلم للخروج وحده ، أو للخروج في جماعة في هذه الرحلة[٦]، لذا اكتسبت رحلة الحج صفة تراثية شعبية[٧]، ولا يكاد يحفل المرء ، أو يكترث كثيراً بالمشقة والمتاعب على الطريق إلى بيت الله الحرام، لما لها من ثواب وأجر عظيم عند الله سبحانه وتعالى .

---

[١] الشامي(صلاح الدين علي): الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، ١٩٩٩م ، ص ١١٦ .

[٢] الصعيدي(عبد الحكيم عبد اللطيف): الرحلة في الإسلام انواعها وآدابها ، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ص ٢٥ .

[٣] الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص ١١٦ .

[٤] القرآن الكريم : سورة آل عمران، الآية ٩٧ .

[٥] القرآن الكريم : سورة الحج ، الآية ، ٢٧ .

[٦] الشامي : الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص ١١٦.

[٧] النساج(سيد حامد): مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، مكتبة غريب، الإسكندرية، د.ت ، ص ١١.

وسواء كانت الرحلة إلى بيت الله الحرام في البر أو في البحر ، فإنها قد التزمت بمواقيت وأيام معدودات ، من شهر ذي الحجة من كل عام، ويتلمس الحاج في هذه الرحلة طريقه، بكل الحذر لكي لا يضل[١].

وهذا الأثر الروحي على المسلمين كان وراء دفع المغاربة خاصة إلى تحمل مشاقة السفر الطويل إلى الحجاز والمدينة[٢]، إذ كان المغربي يأخذ الدين مأخذ الجد وليس له رأيان أو احتمالان في موضوع يتعلق بالدين.

وأقل ما يقال في شأن هذه الرحلة أن دروباً وطرقاً قد تخصصت يتوجه عليها الحجيج من أوطانهم ، وما من شك أن رحلة الحج في كل عام وتكرارها، قد خدم الانفتاح بين المسلمين[٣] لأن في هذه الرحلة يتزود الحاج بالمعلومات الجغرافية والبشرية في كل منطقة يمر بها أو مع كل جماعة يصادفها، وعندما تصل وفود الحجاج إلى بيت الله الحرام يكون هناك تبادل في المعلومات والآراء ، سواء أكانت جغرافية أم أدبية أم اقتصادية وجوانب أخرى من المعرفة[٤].

ولم تكن الرحلة الدينية مقتصرة على بلاد الحجاز، فهناك الرحلة إلى الأماكن المقدسة في بلاد الشام ، القدس– دمشق ، وغيرها [٥].

-الرحلة العلمية : هي رحلة تشوق إلى العلم ، والجلوس في مجالس العلم والاستماع إلى العلماء ، وهي رحلة تقرب العبد المسلم إلى الله[٦]، وترتبط بالدين والدنيا[٧].

---

[١] الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة ، ص ١١٧.

[٢] أبو القاسم(سعد الله): بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص ١٥٢.

[٣] الشامي : الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص ١١٧.

[٤] الفيل(محمد رشيد): أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٧٩م،ص ١١ .

[٥] الجمة(نواف عبد العزيز): رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القرن الثامن الهجري، دار السويدي، الأردن ، ط١، ٢٠٠٨م، ص ٢٧ .

[٦] الشامي : الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص ١١٧ .

[٧] الفيل: أثر التجارة والرحلة، ص ١١ .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا النوع من الرحلات منها رحلة النبي موسى عليه السلام، في قوله تعالى :﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علمـا۞ قـال لـه موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ﴾[1].

وخروج طالب العلم في هذه الرحلة وصولاً إلى مجالس العلماء، يمثل دعوة مفتوحة مـن الله لكل الناس لكي يتدبروا ويتمعنوا، وهم جلوس يستخدمون العقول، أو وهم قعود يحصدون ثمرات العقول المتفتحة، والخبرات البصيرة لحساب حركة الحياة.

وسواء كان الخروج في الرحلة وصولاً إلى مجالس العلماء، من أجل التفقه في الدين وعلـوم الدين والسنة أو من أجل التعمق في علوم الدنيا ، فالرحلة وشد الرحال إلى هذه المجالس ، قد خدم الانفتاح الإسلامي والتفتح العلمي، ولقد أيقظ كل خارج في رحلة طلب العلـم حـب الجغرافـي الفطري، وأحس استخدام حسه وحدسه لكي يرشده على الطريق.

وما من شك في أن هذا التحرك قد أتاح فرص الاطلاع على الرؤية الجغرافية ، وما تنبئ به عن كثب على كل طريق في الاتجاه الصحيح وفي كل موقع احتوى أو ضم مجلساً من مجـالس العلماء[2].

وقد أصبحت هذه الرحلة في القرن الثالث الهجري، معياراً للحكم على مستوى علـم العلمـاء والفقهاء[3] .

-الرحلة التجارية : لقد حث الدين الإسلامي على العمل والكسب الحلال ، لأنه فيه قوام الحيـاة ، وهو السبيل إلى العيش الكريم، الذي يغني صاحبه عن السؤال. قال تعالى:﴿هو الذي جعل لكـم الارض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾[4] .

وسواء كانت هذه الرحلة برية أو بحرية، قد واصلت المغامرة بكل تأكيد، وعرفت طريقها إلى أهدافها، بل لقد انهمكت الانهماك المثابر ، في أداء المهام المنوطة بها لحساب دورهـا الـوظيفي

---

[1] القرآن الكريم : سورة الكهف ، الآية ٦٥، ٦٦ .
[2] الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة ، ص ١١٧ .
[3] النساج: مشوار كتب الرحلة، ص ١٠ .
[4] القرآن الكريم : سورة الملك، الآية ١٥ .

الحيوي البناء على أوسع مدى، في أنحاء المعروف من العالم، وما من شك في أن توجــه هــذه الرحلة كان مفيداً ومجزياً، سواء كان التحرك على صعيد العالم الإسلامي، أو على صــعيد مــا وراء تخوم هذا العالم(١).

وكان الخلفاء المسلمون يشجعون على التجارة للأسباب التالية:

أ-توفير الحاجيات الضرورية والتي يعملون في سبيل الحصول عليها بكل سخاء .

ب-توفير ما يحتاجه الشعب من الغذاء والفواكه والمواد الأولية المختلفة .

ج-توفير الخامات الأولية للصناعة(٢).

بالإضافة إلى التعرف على منتجات البلدان الأخرى وكل ما هو مميز لها .

وقد ساهمت حركة التجارة مساهمة فعالة في اتساع مركز التنقل والترحــال، وكــان للعــرب المسلمين علاقات تجارية واسعة مع الهند والصين وإفريقيا الداخلية وشمال أوروبا، علاوة علـــى حركتهم البحرية الهائلة عبر البحار والمحيطات ، فاستعملوا موانئ الخليج العربـــي(٣) ، وميـنــاء عدن(٤) وميناء سيراف(٥)، وهذا راجع لعامل الأمن والاستقرار الذي أثر إيجابـــاً علـــى العمليـــة التجارية ونشاطها براً وبحراً (٦)، فانتعشت الحياة و تعددت مراكز التجارة في المشرق الإسلامي .

---

١ الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة، ص ١١٣ .

٢ الفيل : اثر التجارة والرحلة، ص ٢١ .

٣ لوبون(غوستاف): حضارة العرب، تر: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٢م ، ص ٥٧١ ، ٥٧٢ .

٤ عدن: هي مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن وهذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند والتجار يجتمعون إليه لأجل ذلك فأنها بلدة تجارة ؛ الحموي : معجم البلدان ،ج٤ ، ص٨٩.

٥ سيراف: هي مدينة جليلة على ساحل بحر فارس كانت قديماً فرضة الهند وفيها ميناء للمراكب ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٣، ص ٢٩٥ .

٦ الجمة: رحالة الغرب الإسلامي، ص ٤٠ .

-الرحلة الفضولية : وهذا لون آخر من ألوان الرحلة، لا نقول أنه مستحدث وإنما هو موضـــوع قديم أشتهر به أناس كثيرون، وكانت رحلاتهم تقوم على أساس الضرب فـــي الأرض للاتعـــاظ والعبرة [١] .

قال تعالى ﴿ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الأخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾[٢].

ويمكن اعتبار الرحلة الفضولية ميلاً فطرياً للبحث والاستطلاع أما لغرض الدراسة أو الوقوف

على ما للبلاد الاخرى من عجائب وغرائب[٣]، وقد كان للرحالة العرب والمسلمين اهتمام بالأسفار والتجوال في مختلف أنحاء العالم المعروف آنذاك لجمع معلوماتهم القائمة على المشاهدة والتحقيق الشخصي مما يزيد من قيمة المعلومات التي يوردونها[٤].

ومما شجع على ذلك شعور العربي بأنه في بلده ما دام في ديار عربية بشكل خاص وإسلامية بشكل عام ، وكان للعروبة هيبة في سائر دول العالم فكان العرب المسافرون يلقـــون مـــن كـــرم الضيافة وحسن المعاملة ما يحبب إليهم الرحلات والأسفار[٥].

-الرحلة الرسمية أو التكليفية (رحلة السفارة) : هي رحلـــة المســـؤولية والتكليـــف، ووضـــع التعليمات موضع التنفيذ أكثر من أي شيء أخر ومن شأن هذه الرحلة أن تخرج في البر أو فـــي البحر وأن تعمل بموجب التكليف من ولى الأمر وامتثالاً لمصلحة عامة مشروعة لحساب الإسلام و المسلمين .

ومن هذه الرحلات المشهورة السفارة التي أرسلها الرسول الكريم (ﷺ) إلى هرقل إمبراطـــور الروم سنة ٦هـــ \ ٦٢٧م، لدعوته للإسلام[٦]، و أوكل أمر هذه السفارة إلى الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي[٧]، يحمل رسالته داعياً إياه للإسلام .

---

١ الصعيدي: الرحلة في الإسلام ، ص ٣٩ .

٢ القرآن الكريم: سورة العنكبوت، الآية ٢٠ .

٣ حميدة (عبد الرحمن): أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر المعاصر ، دمشق، ط١، ١٩٨٤م، ص ٥٢ .

٤ الكيلاني: الرحلات و الرحالة في التاريخ الإسلامي ، ص٤٨، ٤٩ .

٥ حميدة : أعلام الجغرافيين العرب، ص ٥٢ .

٦ الشامي : الرحلة عين الجغرافية المبصرة ، ص١١٥ .

٧ دحية الكلبي: هو أحد رسل الرسول الكريم (ﷺ) لإيصال كتابه إلى هرقل ملك الروم ، وكان يشبه جبريل، يقول الرسول (ﷺ) بأن جبريل يأتيه بصورة دحية لجمال صورته، شهد اليرموك وسكن المرة وبقي إلى زمن معاوية بن

وتطور نظام السفارة باتساع رقعة الدولة الإسلامية وازدهارها ، فاستهدفت تـدعيم الـروابط العلمية والثقافية بين الدول الإسلامية وجاراتها(١)، وعملت على ترسيخ مكانة الدولة في مجتمـع الدول ونقلت الأخبار العامة والخاصة فيما بين أمصار الدول(٢).

كما كان للسفراء اللماحين الأذكياء دور بارز وهام في توضيح وجهات النظر الخاصة بـدولهم لدى الأخرين والعمل الدائم على إزالة ما قد ينشأ بين دولة و أخرى من توتر في العلاقات(٣).

وبناء على ذلك فإن الرحلة تعددت أنماطها بتعدد أهدافها ، وربما تشترك الرحلة الواحدة بأكثر من هدف .

ت- دور أدب الرحلة في ردم الفجوة المعرفية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي.

تعد كتب الرحلات شكل من الأشكال الأساسية لمعرفة التاريخ الإسلامي في العصر الوسـيط كونها تضيف الكثير من المعلومات و الأحداث ، وتقدم وصفاً للأمـاكن والأشـخاص ، وهـي انطباعات شخصية وواقعية عن الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للمناطق التي تشملها وهي تشكل مادة غنية للجغرافيين والمؤرخين وكذلك لعلماء الاجتماع والاقتصاديين ودارسي الأدب وغيرهم.

وفوق هذا هي ذات تشويق لأن الرحالة مولع بنقل كل ما يسمع أو تقع عينه عليه ، وكثيراً ما يبالغ في ذلك لإضفاء المزيد من التشويق، فراوي الرحلة هو صاحبها ومجربها والعارف بأحداثها والمحيط بتفاصيلها، وقد عاشها بجماع فكره وأحساسه(٤).

وعليه فإن الرحلات تقدم في مجال التاريخ بعض المعلومات التي لم يقدمها لنا العلم المخـتص في هذا المجال، فإذا كان التاريخ يعمل على وصف واستقصاء حياة البلدان و تاريخها بمختلـف

أبي= = سفيان ؛ الذهبي(شمس الدين محمد بن أحمد ت: ٧٤٨هـ ــ١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء ، تح: شعيب الأرناؤوط ،مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١١ ، ١٩٩٦م، ج٢ ، ص ٥٥٠، ٥٥٥ .

١ الفيل : أثر التجارة والرحلة ، ص ١١ .

٢ الشامي: الرحلة عين الجغرافية المبصرة ، ص ١١٥ .

٣ الصعيدي: الرحلة في الإسلام ، ص ٣٦ .

٤ نواب(عواطف محمد يوسف): كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية ،بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي الحديث، لم ينشر، جامعة أم القرى، ١٩٩٩م، ص ١٢ .

مظاهرها، فإن الرحلات أعطت كل ذلك بعده المناسب، وتطرقت إلى تحليل جوانب لم تتطرق إلى تحليلها الوثائق التاريخية .

ولا ريب أن الرحلات كانت بمثابة مصادر شاملة سجلت فيها جوانب متعـددة ، فقـد جـاب الرحالة العرب كل الأماكن المعروفة في زمانهم ، ودونـوا ملامحهـا الإنسـانية والاقتصـادية والاجتماعية والثقافية والمعمارية والجغرافية [1]، وليس هناك شك في أنها قدمت إسهامات بالغـة الأهمية في دراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي .

إذ حوت كتابات الرحالة معلومات عن الجوانب الاقتصادية في الأماكن التـي مـروا بالتـالي شكلت رافداً فياضاً لدارسي الاقتصاد في المجتمعات البشرية ، فالرحالة تحدثوا عن الصـناعات وحجم الخراج والمنتجات وطرق التجارة و أنماط المعاملات و النقود وجودتها أو زيفها بقدر جيد ، وهو في نفس الوقت كان كافياً للمس التطور الحادث في الأمور الاقتصادية[2].

وكتب الرحلات من أهم الكتب التي تشير بجلاء للجانب الاجتماعي فقد كشف الرحالـة عـن أحوال الناس الذين صادفوهم وعاداتهم وتقاليدهم فأثنوا على الحسن من عاداتهم، واستقبحوا الشاذ منها ودعوا إلى البعد عنه[3].

وإن مثل هذه الكتب في مثل هذه الحالة تعتبر مصدراً لوصف الثقافة الإنسانية ، كما تعد مـن أكثر المدارس تثقيفاً للإنسان، فالاختلاط والحياة مع الشعوب المختلفة إضافة إلى الاجتهـاد فـي دراسة أخلاقهم وطباعهم، غالباً ما تضع أمام الفرد مجالاً طبيعياً للمقارنة[4].

---

[1] حمود(خضر موسى محمد): أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١١م، ص ٩ .

[2] نواب : كتب الرحلات، ص ١١ ، ٢٠ .

[3] زيادة(نقولا): الجغرافية والرحلات عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٦؛ الموافي (ناصر عبد الرزاق):الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، دار النشر للجامعات ، القاهرة ، ط١، ١٩٩٥م، ص ٥٨ ؛ جوادي(المسعود):الرؤية المركزية دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي ، لم ينشر ، جامعة قاصدي مرباح، ٢٠١٧م، ص٣٣.

[4] النساج: مشوار كتب الرحلة ، ص ٨ .

وهكذا تأتي القيمة العلمية التاريخية للرحلات ، فهي مصادر دونت بواسطة شهود عيان، عاصروا الحدث وقاموا بتسجيله في حينه ، فدراسة الناحية التاريخية للرحلات مفيدة في التعرف على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية للمشرق الإسلامي فهذه الجوانب كتبت بحسب ما شاهده الرحالة ولمسه، ولا شك أن هكذا أمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة، والتي انصب اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية[١]. ونافلة القول أن أدب الرحلة يعد من أهم المصادر في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، لأن الكاتب يأخذ المعلومات والحقائق من المشاهد الحية ، والتصوير المباشر مما يجعل قراءته مفيدة وممتعة ومسلية ، وأدب الرحلات أدب واقعي إلى حد ما ومساحة الخيال في أدب الرحلات قليلة جداً ، لأنه يعتمد في الأساس على الواقع من الناس والعادات والتقاليد والطعام والشراب .

ثالثاً- أهم رحالة القرن الثالث الهجري.

في مستهل القرن الثالث الهجري ، تبلورت لدى العرب والمسلمين فكرة التجوال في البلاد ، ورصد ما بها من أعاجيب ، ووصف الأقاليم وتضاريسها ، وطبيعة حياة الشعوب، وتدوينها في كتب أضحت فيما بعد أيقونةً ومنهاجاً، ومرجعاً يعود إليه الباحثون عربياً وغربياً، وتسطر بشأنه العديد من المقالات والكتب .

هؤلاء ثمانية من أشهر وأهم رحالة العرب والمسلمين في القرن الثالث الهجري – وغيرهم كثيرون – من شغلوا العالم برحلاتهم .

أ-هشام الكلبي (ت:٢٠٦هـ – ٨٢١م) :

هو أبو المنذر[٢] هشام بن محمد بن السائب بن بشر الكلبي الإخباري، نشأ في مدينة الكوفة[٣]، إحدى المراكز النشطة في الكتابة التاريخية [٤] في القرن الثالث الهجري.

---

١ نواب: كتب الرحلات، ص ٢٠ .

٢ الحموي(شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت: ٦٢٦هـ /١٢٢٨م) : معجم الأدباء ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.م ، ط٣ ، ١٩٨٠م ،ج١٩ ، ص ٢٩٢ .

٣ الصفدي(صلاح الدين ت: ٧٦٤هـ /١٣٦٢م): الوافي بالوفيات ، تح : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٠م ، ج٢٧ ، ص ٢١٢ .

٤ الدوري(عبد العزيز): نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،٢٠٠٥م، ص ١٨–٤٠.

قال ابن النديم: "إنه عالم بالنسب وأخبار العرب وأيامها ومثالبها ووقائعها"[١]، ويشير الذهبي إلى أنه صاحب ذكاء وجدال وبدعة وبال [٢] .

ويعد المؤرخون للعلوم أن هشام الكلبي كان حسن المعرفة وجيد القريحة ليس فقط في الجغرافية ولكن أيضاً في التاريخ ، فهو أول من دون معلومات ذات قيمة تعد من أهم المصادر للباحثين في هذين الحقلين وخاصة عن فترة ما قبل الإسلام[٣].

تحدث الخطيب البغدادي في كتابه (تاريخ بغداد)، عن نبوغ هشام الكلبي وذكائه فيقول:" ذات مرة قال الكلبي حفظت مالم يحفظ أحد ونسيت مالم ينسى أحد كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام"[٤] . هذا هو هشام الكلبي ، مدرسة علمية واسعة الأبواب مشرعة الدخل، فهو الحجة في كل فن ، وهو الصدر لكل وارد[٥].

كان يربط الكلبي علاقة قوية بالخليفة العباسي المأمون ، لشهرته الفائقة النظير في علم الأنساب الذي أولاه جل اهتمامه فله في ذلك صولة وجولة مما دفع المأمون أن يأمره بتأليف كتابه المشهور (الفريد في الأنساب)[٦]، وله أيضاً في علم الأنساب كتاب(جمهرة الأنساب)، وكتاب(الموجز في النسب)، وكتاب (الملوكي في الأنساب)[٧] .

---

[١] ابن النديم : الفهرست ، ص ١٤٠ .

[٢] الذهبي(محمد بن أحمد ت: ٧٤٨هـ /١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء ، تح: محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١١، ١٩٩٦م ، ج١٠ ، ص ٥٤٧ .

[٣] الدفاع(علي بن عبد الله): رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة التوبة، د.م، د.ت، ص٦٩.

[٤] البغدادي(أحمد بن علي بن ثابت ت:٤٦٣هـ/١٠٧٠م): تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها و ورديها، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م، ج١٦، ص ٦٩.

[٥] الكلبي(هشام بن محمد بن السائب ت:٢٠٦هـ/ ٨٢١م): جمهرة النسب، تح: ناجي حسن، مكتبة النهضة العربية ، بيروت، ط١، ١٩٨٦م ، ص ٧ .

[٦] الدفاع: رواد علم الجغرافية ، ص ٦٩ .

[٧] الحموي : معجم الأدباء ، ص ٢٩٢ .

أما مكانته في علم التاريخ فهو علامة عصره دون منازع ، وقد ورث رغبته في هذا المجال عن والده محمد بن السائب[١]، ولذا ذاع صيته بين المؤرخين في العالم ، والحق أنه مؤرخ بـــارز في علم الأنساب وأخبار العرب والمسلمين[٢].

ولقد قضّى هشام الكلبي معظم أوقاته في القراءة والبحث ، ويتضح ذلك جلياً في كثرة مصنفاته التي بلغت تقريباً مائة وخمسين كتاباً[٣]، أشهرها في ميدان علمي التاريخ والجغرافية ، ومن هـــذه الكتب : كتاب(ألقاب قريش) ، وكتاب(ملوك كندة) ، وكتاب (أسواق العـــرب)، وكتـــاب (حكـــام العرب)، وكتاب (النسب الكبير) ، وكتاب(الأقاليم) ، وكتاب(البلدان الصغير)، وكتاب(البلـــدان الكبير)[٤]، وغيرها .

وقد مات هشام الكلبي في سنة ٢٠٦هجرياً[٥] /٨٢١ ميلادياً، في مدينة الكوفة[٦] .

-هل كان للخليفة المأمون دور في رحلاته ؟ أي هل كانت رحلاته ممولة من قبل المأمون ؟

لم تذكر المصادر التاريخية فيما إذا كانت رحلاته قد مولت من قبل المـــأمون رغـــم العلاقـــة القريبة فيما بينهم .

ب- سلام الترجمان (ت ٢٢٧هـــ - ٨٤١م) :

رجل من العراق عاش في زمن الخليفة العباسي الواثق بالله[٧] ، اشتهر بـــين أهـــل ســـر مـــن بإجادته التحدث بعديد من اللغات حتى سمي الترجمان، ولا نعرف شيئاً من أخباره، ولم يرد لـــه

---

[١] الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢٧، ص ٢١٢ .
[٢] الدفاع : رواد علم الجغرافية ، ص ٧٠ .
[٣] الصفدي: الوافي بالوفيات ، ج٢٧ ، ص٢١٢ - ٢١٤ .
[٤] الحموي: معجم الأدباء، ج١٩، ص ٢٩١ .
[٥] البغدادي: تاريخ مدينة السلام، ج١٦، ص ٧٠ .
[٦] الدفاع : رواد علم الجغرافية، ص٦٩.
[٧] قنديل : أدب الرحلة، ص ٩١ .
[٨] سر من رأى : مدينة أستحدثها الخليفة العباسي المعتصم بالله في العراق وبسط القول فيها بسامراء فأغنى ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٣ ، ص ٢١٥ .

ذكر في أي من معاجم الأعلام، كما لم يذكره المؤرخون وكتاب السير[1]، وقام بتكليف من الخليفة الواثق بالله برحلة إلى بحر قزوين[2]، ليعاين سد يأجوج ومأجوج[3].

وبدأت رحلته من سر من رأى ، وقد مر بعدة بلدان حتى وصل إلى السد ووردت تفاصيل رحلته في المسالك والممالك لابن خرداذبة الذي كان معاصراً للأحداث بجانب أن الرواية سمعها من لسان الترجمان نفسه .

الرحلة كما وردت في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة :((حدثني سلام أن الواثق بالله رأى في منامه كأن السد الذي بناه ذو القرنين بيننا وبين يأجوج ومأجوج قد أنفتح ، فطلب رجلاً يخرجه إلى الموضع فيستخبره خبره ، فقال أشناس : ما ها هنا أحد يصلح إلا سلام الترجمان ، فقال: فدعا بي الواثق وقال : أريد أن تخرج إلى السد حتى تعاينه و تجيئني بخبره .... فشخصنا من سر من رأى بكتاب من الواثق بالله إلى إسحاق بن إسماعيل صاحب أرمينية ، ثم صرنا إلى مدن خراب فسرنا فيها عشرين يوماً ، فسألنا عن حال تلك المدن فخبرنا أنها المدن التي كان يأجوج ويأجوج يتطرقونها فيخربونها))[4].

ويصف سلام السد فيقول : ((والسد الذي بناه ذو القرنين هو فج بين جبلين عرضه مائتا ذراع ، وهو الطريق الذي يخرجون منه فيتفرقون في الأرض فحفر أساسه ثلاثين ذراعاً ، وبناه بالحديد والنحاس حتى ساقه إلى وجه الأرض ، ثم رفع عضادتين مما يلي الجبل جنبي الفج عرض كل عضادة خمس وعشرون ذراعاُ في سمك خمسين ذراعاً))[5].

وحدث الترجمان قال: ((لما رأى الواثق بالله كأن السد الذي بناه ذو القرنين قد فتح وجهني وقال لي : عاينه وجئني بخبره ، وذهبت فوجدت عند السد قوماً يتكلمون بالعربية والفارسية مسلمون يقرؤون القرآن لهم مساجد وكتاتيب فسألونا فقال : نحن رسل أمير المؤمنين فأقبلوا

---

[1] قنديل : أدب الرحلة ، ص ٩١ ، الموافي : الرحلة في الأدب العربي ، ص ٢٢٠ .

[2] حمود : أدب الرحلات ، ص ٢٤ .

[3] ابن خرداذبة (عبيد الله بن عبد الله ت:٣٠٠هـ/٩١٢م): المسالك والممالك، دار صادر، بيروت ،١٨٨٩م ، ص١٦٢ -١٦٤ .

[4] ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ١٦٣، ١٦٤.

[5] ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص١٦٤.

يتعجبون ويقولون : أمير المؤمنين ! فنقول : نعم . فقالوا : شيخ هو أم شاب . قلنا شاب ، فقالوا : أين يكن ؟ فقلنا : بالعراق بمدينة يقال لها سر من رأى . فقالوا : ما سمعنا بهذا قط))[1] .

وتؤكد لنا هذه الرواية مدى الدور الثقافي والحضاري الذي قدمته الرحلة، حيث قامت بعملية تواصل اجتماعي وثقافي بين الخليفة وبعض الشعوب التي مرت بها الرحلة .

ت- سليمان التاجر (ت٢٣٧هـ - ٨٥١م).

رحالة عراقي عاش في القرن الثالث الهجري[2]، لا نكاد نعرف شيئاً عن ترجمته وحياته [3]، سوى أنه من تجار العراق الذين كانوا ينقلون عروض الهند والصين إلى البلاد العربية ، وبدأ رحلته البحرية من الخليج الفارسي إلى المحيط الهندي وشرقاً إلى المحيط الهادي[4]، و دون رحلته في مذكرات عدة، واصفاً كل ما رآه من جزر وجبال وما عاين من أخطار، وجاءت هذه المذكرات ضمن كتاب أبي زيد حسن السيرافي .

ويقول في مذكراته :"وليس لأهل الصين علم ، وإنما أصل ديانتهم من الهند وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم ، والطب بالهند الفلسفة، ولأهل الصين طب وأكبر طبهم الكي ، ولا أعلم أحداً من الفريقين مسلماً ولا يتكلم العربية"[5].

وقدم الرحالة سليمان وصفاً دقيقاً للطرق التجارية والعادات والتقاليد والنظم الاجتماعية والاقتصادية ، وتطرق لأهم المنتجات في الهند والصين ،مع قلة الخرافات والأساطير، التي تكثر في حديث البحارة ، وتمتاز بالأخبار الوافية عن علاقة المسلمين بالصين في القرنين الثالث والرابع الهجريين[6].

---

[1] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ،ص ١٦٢ – ١٦٤.

[2] الريامي: مشاهير الرحالة العرب، ص ١٩ .

[3] حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ٢٣ .

[4] حمود: أدب الرحلات، ص ٢٥ .

[5] السيرافي(أبو زيد الحسن ت : ٣٣٠هـ /٩٤١م): رحلة السيرافي ، تح: عبد الله الحبشي ، المجمع الثقافي، أبو ظبي ، ١٩٩٩م ، ص٥٠ ، ٥١.

[6] كراتشوفسكي(أغناطيوس يوليا): تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدول العربية ،د.م، ١٩٥٧م، ج١ ،ص ١٣٩؛ أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص٢٥ ،٤١ .

ومن الطريف أن سليمان التاجر أول مؤلف غير صيني يشير إلى الشاي ، فقد ذكر أن ملك الصين كان يحتفظ لنفسه بالدخل الناتج من محاجر الملح ومن نوع من العشب ، يشربه الصينيون في الماء الساخن ويباع منه الشيء الكثير في جميع مدنهم ويسمونه (ساخ)[١] .

ث- ابن وهب القرشي (ت: ٢٤٦هـ - ٨٦٠م).

رجل غني من قريش[٢] يعرف بابن وهب بن ولد هبار بن الأسود[٣]، عاش ابن وهب في مدينة البصرة[٤]، وكان تاجراً غنياً من ذوي الثروة والجاه في العراق[٥]، يبيع منتجات الصين والهند من الموانئ القريبة وخاصة " سيراف" ، ويبيعها في الأسواق لأهل العراق والجزيرة[٦].

قام ابن وهب برحلة إلى الصين والهند ، ذكرها المسعودي في كتابه (مروج الذهب) ، إذ يقول عن رحلة ابن وهب :((ومن طرائف أخبار ملوك الصين أن رجلاً من قريش من ولد هبار ابن الأسود لما كان من أمر صاحب الزنج بالبصرة ما كان واشتهر خرج هذا الرجل من مدينة سيراف على بعض مراكب هندية ، وساح طويلاً في ممالك الهند ، إلى أن انتهى إلى مدينة خانقو(كانتون) بمملكة الصين ، ثم تقدم إلى مدينة حمدان العاصمة ، وكان من أرباب البصرة وأرباب النعم بها ، ثم ركب منها في عض[٧] مراكب إلى أن انتهى إلى بلاد الصين))[٨].

ويقال أن ابن وهب استطاع لقاء ملك الصين وعرض عليه الملك صوراً للأنبياء حسب ما ذكرت المصادر ، ومن بينها صورة للرسول (ﷺ)[٩].

---

[١] حمود : أدب الرحلات ، ص ٢٥ .

[٢] كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي ، ج١، ص ١٤١؛ قنديل : أدب الرحلة ، ص ١٠٩ .

[٣] حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ص ١٩ .

[٤] قنديل: أدب الرحلة، ١٠٩ .

[٥] أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٤٢ .

[٦] حمود : أدب الرحلات، ص ٢٥ .

[٧] عض: لم يتم العثور على ترجمة خاصة لهذه الكلمة، ربما وردت خطأ من المصدر.

[٨] المسعودي: مروج الذهب، ج١، ص ١١١ .

[٩] الريامي : مشاهير الرحالة العرب، ص ١٥ .

ج- ابن رسته (ت٢٩٠هـ - ٩٠٢م).

هو أبو علي أحمد بن عمر بن رسته[١] وهو من أعظم الجغرافيين الرحالة في القــرن الثالــث للهجرة الذين نهلوا من المعرفة اليونانية والرومانية بعد تعريفها وتنقيحها[٢]، ولا نعرف الكثير عن سيرته وكل ما نعرفه عنه أنه فارسي الأصل ، قضى الشطر الأكبر من حياته في أصبهان وأنــه قام بأداء فريضة الحج إلى مكة المكرمة في سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م[٣].

وقضى ابن رسته معظم حياته في البحث و الاستقصاء ، لذا أنتج موسوعته الشهيرة (الأعلاق النفيسة) المؤلفة من سبعة أجزاء ، لكن لم يصل منها سوى الجزء السابع ، وضاعت منه ســتة أجزاء[٤] .

وصف ابن رسته في هذه الموسوعة ، الأفلاك وهيئة السماء والكواكب والبــروج والشــمس والقمر والليل والنهار والبحار والقفار ، والمدن والمسافات ، والمساجد ، والعمائر ، والبلاد التي شد الرحال إليها كاليمن ومصر والمغرب والقسطنطينية وبلاد الروم والخزر وروسيا[٥].

يقول ابن رسته :" أن الله جل وعز وضع الفلك مستديراً كاستدارة الكرة أجوف دواراً والأرض مستديرة أيضاً كالكرة مصمتة في جوف الفلك قائمة في الهواء يحيط بها الفلك من جميع نواحيها بمقدار واحد من أسفلها وأعلاها وجوانبها كلها"[٦].

ويقول في صفة مدينة بغداد :" ومصر هذه الكورة مدينة السلام وهي المسماة بغداد وبغداد اسم موضع كانت في تلك البقعة من قبل زعموا أنه كان موضعاً للأوثان والأصنام في الدهر القديم ، وهي أرض بابل وبابل أقدم هذه المواضع كلها وكانت الملوك الأوائل تنزل بها من قبل "[٧].

---

[١] الزركلي : الأعلام، ج١، ص ١٨٥ .

[٢] أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٨٩ .

[٣] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ، ص ١١٦ .

[٤] حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ١١٦ .

[٥] الدفاع : رواد علم الجغرافية ، ص ٨٥ .

[٦] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، مج ٧، ص ٨ ، ١٠٨ .

[٧] حمود : أدب الرحلات، ص ٢٩ .

ح- ابن الفقيه (ت :٢٩٠هـ - ٩٠٢م) .

هو أحمد بن إسحاق[١] وقيل هو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الفقيه الهمذاني ويكنى بأبي عبد الله [٢]، ولد في مدينة همذان في فارس وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، ومن علماء ذلك القرن[٣] .

وكان خبيراً بالرواية والأدب وله كتاب عن الشعراء[٤] ، ووضع مختصراً لكتابه البلدان أعان فيه القارئ العام ، وتضمن مادة جغرافية أعانت المسافر والرحالة والتاجر في التجوال عبر الأقطار والتنقل فيما بينها مع الأئتناس بالطرائف والحكايات العجيبة[٥].

وكان ابن الفقيه من أسرة فارسية اشتهر أفرادها من أهل الحديث والأدب كما أنه اشتهر بعلم الحديث والأدب[٦] ، حيث ترعرع أبو بكر الهمذاني في ذلك البيت بين الأسرة العلمية ، كما حاز ابن الفقيه مكانة علمية عالية بين علماء الحديث والأدب ولكنه تميز وتألق نجمه في علم الجغرافية[٧]، وابن الفقيه اسم ذائع الصيت في عالم الجغرافية والرحلات ، ولم نعثر على ما يفيد قيامه برحلة إلى جهة من الجهات ولا نكاد نعرف عنه ما يكفي في الأخبار[٨].

قال ابن الفقيه :" قال الله عز وجل: إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. و قال وسأل النبي (ﷺ) عن الأرض قال نعم والسماوات سبع وقرأه الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلين فقال رجل فنحن على وجه الأرض الأولى قال نعم وفي الثانية يطيعون ولا يعصون وفي الثالثة خلق وفي الرابعة صخرة ملساء والخامسة ضحضاح من الماء والسادسة سجيل وعليها عرش إبليس والسابعة ثور والأرضون على قرن الثور والثور على سمكة

---

١ الزركلي : الأعلام ، ج١، ص ٢٠٩ .
٢ الدفاع : رواد علم الجغرافية ، ص ٨٣ .
٣ قنديل : أدب الرحلة ، ص ١٤٠ .
٤ ابن النديم: الفهرست، ص٢١٩.
٥ حمود : أدب الرحلات ، ص ٢٩ ،٣٠ .
٦ حميدة : أعلام الجغرافيين، ص ١٣١ .
٧ الدفاع : رواد علم الجغرافية، ص ٨٣ .
٨ قنديل: أدب الرحلة، ص١٤٠.

والسمكة على الماء والماء على الهواء والهواء على الثرى والثرى منقطع فيه العلماء". ويقول في صفة أهل العراق :" وقال بعض أهل النظر أهل العراق هم أهل عقول صحيحة وشهوات محمودة وشمائل موزونة وبراعة في كل صناعة مع اعتدال الأعضاء واستواء الأخلاط وسمرة الألوان"[١].

خ- اليعقوبي (ت : ٢٩٢هـ - ٩٠٤م).

هو أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي[٢]، وتشير بعض المصادر إلى أنه اسمه أحمد العباسي[٣]، ولقب بالأصبهاني والكاتب المصري[٤]، وهو أحد أحفاد واضح مولى المنصور وكان الجد قد شغل وظيفة الحاكم على أرمينية ومصر[٥]، ومن المحتمل أن يكون الابن قد حذا والده في حب الأسفار وربما ارتبط بعمل البريد ولا دليل غير كثرة أسفاره وارتباط أغلب رجال أسرته بالوظائف الحكومية[٦] .

وتشير المصادر إلى أن ولادته كانت في بغداد التي نشأ وترعرع فيها غير أنه غادرها مبكراً إلى أرمينيا حيث أمضى فترة شبابه هناك في خدمة الطاهريين[٧].

وينحدر اليعقوبي من أسرة تعتنق المذهب الشيعي ، فجده واضح كان من المتعصبين إلى هذا المذهب ، وينتسب إليه إدريس[٨] الذي قام بتهريبه إلى المغرب إذ بان عمله في بريد مصر ، ودفع حياته ثمناً لذلك[٩]. أهم ما خلف لنا من المؤلفات : كتاب التاريخ الكبير ، وكتاب صغير

---

١ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٣ ، ١٦٣ .

٢ الجعفري(ياسين إبراهيم علي): اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م، ص١٩؛ الزركلي : الأعلام، ج١، ص ٩٥ .

٣ الحموي : معجم الأدباء، ج٥، ص ١٥٣ .

٤ حمود : أدب الرحلات، ص ٢٦ .

٥ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي،ج١، ص ١٥٨ .

٦ قنديل : أدب الرحلة، ص ١١٧ .

٧ الزركلي : الأعلام، ج١، ص ٩٥ .

٨ إدريس بن عبد الله : هو مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب ، وإليه نسبتها ، أول ما عرف عنه أنه كان مع الحسين ابن علي بن الحسن المثلث ، في المدينة أيام ثورته على الهادي العباسي سنة ١٦٩هـ /٧٨٥م، ثم قتل الحسين فأنهزم إدريس إلى مصر فالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ /٧٨٨م؛ الزركلي : الاعلام ج١ ،ص ٢٧٩ .

٩ الجعفري: اليعقوبي، ص٢٩.

بعنوان " أخبار الأمم السالفة " ، ورسالة بعنوان : مشاكلة الناس لزمانهم ، وكتابه المشهور (البلدان)[١] ، الذي يمثل لنا مصدراً أساسياً لدراسة رحلته وسياحته في البلاد شرقاً وغرباً ، وهو من أقيم الكتب التي صنفت في موضوعه ، ذكر فيه الأسفار التي قام بها والوظائف [٢] التي تقلدها في الدولة الطاهرية بخراسان والدولة الطولونية بمصر والشام ، هذا فضلاً عن البيانات التي أقتبسها من غيره[٣] .

لقد أبدى المؤرخ والرحالة اليعقوبي ولعاً بعلم البلدان منذ عنفوان شبابه والتي عبر عنها بقوله :((إني عانيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم وأخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغريبي ، فكنت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره ، فإذا ذكر لي محل داره وموضع قراره ، سألته عن بلده ذلك ، ثم أثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه ، واستظهر بمسألة قوم بعد قوم ، حتى سألت خلقاً كثيراً وكتبت أخبارهم ورويت أحاديثهم وذكرت من فتح بلداً بلداً ، وخبر مصراً مصراً من الخلفاء والأمراء ومبلغ خراجه وما يرتفع من أمواله))[٤].

بدأ رحلته من العراق فزار فارس والشام وفلسطين ومصر ، والمغرب وأرمينيا والهند وشبه الجزيرة العربية وغيرها من البلدان .

وقد اعترف عدد من الباحثين بأمانة اليعقوبي العلمية وتفرده بمعلومات وافية لا توجد في المصادر الأخرى[٥].

وقد توفي اليعقوبي في حدود سنة ٢٩٢هـ /٩٠٤م[٦].

---

١ الحموي : معجم الأدباء، ج٥، ص١٥٤ .

٢ لم تذكر المصادر التاريخية ماهية هذه الوظائف .

٣ أحمد : الرحلة والرحالة المسلمون ، ص ٧١ .

٤ اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب ت:٢٩٢هـ /٩٠٤م) : البلدان، المكتبة المرتضوية، العراق، ١٩١٨م، ص ٢،١.

٥ قنديل : أدب الرحلة ، ص ١١٧ ، ١١٩ .

٦ الجعفري : اليعقوبي، ص ٢٥ .

د- ابن خرداذبة (ت: ٣٠٠هـ - ٩١٢م).

هو الجغرافي الرحالة عبيد الله بن عبد الله المعروف بأبن خرداذبة ، وقد صرح ابن خرداذبة باسمه الكامل في كتابه المسالك والممالك ، حينما قال :((هذا كتاب فيه صفة الأرض ، وبنية الخلق عليها ، وقبلة أهل كل بلد ، والممالك والمسالك إلى نواحي الأرض تأليف أبي القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبة مولى أمير المؤمنين))[١]، كان مجوسياً أسلم على يد البرامكة وتولى إدارة البريد بنواحي الجبل في عهد الخليفة المعتمد العباسي[٢] واشتهر بابن خرداذبة[٣].

هناك اختلاف في سنة ولادته ، إذ قيل أنه ولد عام ٢٠٥هـ/٨٢٠م[٤]، وأرخه بعضهم بسنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، وقيل أنه ولد سنة ٢١١هـ/٨٢٦م[٥]، وهو ينتمي لأسرة فارسية[٦] كان والده والياً على طبرستان جنوبي بحر قزوين في أوائل القرن الثالث الهجري وذاع صيته بسبب نجاحه في إخضاع بعض مناطق الديلم وضمها إلى حظيرة الإسلام[٧]. وقد نشأ في إحدى بلاد فارس وهو من أسرة مثقفة حيث أرسله والده إلى بغداد ليدرس الأدب والموسيقى[٨] .

ويعرف أيضاً ابن خرداذبة بالخراساني لأنه من منطقة خراسان ولكنه تعلم وترعرع في بغداد فهو من كبار علماء الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية وله نتاج جيد في معظم فروع العلوم الاجتماعية ، حيث إن اهتمام الخليفة العباسي المعتمد بابن خرداذبة نابع من مكانته العلمية والثقافية الواسعة وحكمته اللامعة ، فلا عجب فهو من أسرة عريقة ومثقفة وكان من أقرب الناس إلى الخليفة المعتمد بل كان من ندمائه الخاصين[٩].

---

[١] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٤ .

[٢] المعتمد : هو أحمد بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد بويع بالخلافة بعد قتل المهدي سنة ٢٥٦هـ/٨٦٩م ، ودامت خلافته ثلاثة وعشرين سنة ؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٨٩ .

[٣] ابن النديم: الفهرست، ص ٢١٢ .

[٤] أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٥٥ .

[٥] قنديل:أدب الرحلات، ص١٢٥.

[٦] رسكي (مينو) : الجغرافيون والرحالة المسلمون، تر: عبد الرحمن حميدة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٩٨٥م، ص ٨؛ كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي، ج١، ص ١٥٥ .

[٧] قنديل: أدب الرحلة،ص١٢٥.

[٨] أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٥٦ .

[٩] الدفاع : رواد علم الجغرافية ، ص ٧٥ .

لقد ألف ابن خرداذبة العديد من المصنفات في مختلف العلوم والفنون منها : في التاريخ ، أدب الاستماع ، الأنواء ، الملاهي والأسمار ، جمهرة أنساب الفرس ، الطبيخ ، الشراب ، النوافــل ، الندماء والجلساء ، المسالك والممالك[١].

والحق فإن كتاب (المسالك والممالك) ، لابن خرداذبة عبارة عن موسوعة موثقــة فــي علــم الجغرافية ، فقد قدم ابن خرداذبة معلومات وافية وبالغة عن الدولة العباسية المترامية الأطراف ، وخاصة فيما يتعلق بالمسافات بين البلاد لعلاقتها الوثيقة بالرحلات التجارية والبريد[٢].

يقول ابن خرداذبة في صفة الأرض : ((أنها مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلــك كالمحة في جوف البويضة ، مقسومة بنصفين بينهما خط الاستواء وهــو مــن المشــرق إلــى المغرب))[٣]. وقد توفي ابن خرداذبة سنة ٣٠٠هـ /٩١٢م ، حيث كان من أعظم علماء الجغرافية المسلمين . الذين تركوا لنا تراثاً ضخماً في الجغرافية الإقليمية[٤] .

استناداً إلى ما سبق يمكن القول أن الرحالة العرب والمسلمون خلفوا لنا ثروة علمية هامة كانت خلاصة مشاهدتهم وتجاربهم التي اكتسبوها من أسفارهم ومما لا شك فيه أن هذه الثــروة نشــأة نتيجة الرحلات التي قام بها المسلمين في القرن الثالث الهجري ، إذ قدم الرحالة مؤلفاتهم خدمات جلى كان لها الفضل الأكبر في تطور علم الجغرافية .

-سيكون الفصلان التاليان محاولة لاستخلاص ما له علاقة بالتــاريخ الاقتصــادي والاجتمــاعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من خلال مؤلفاتهم.

---

١ حمود: أدب الرحلات، ص٢٨.

٢ الدفاع: رواد علم الجغرافية ، ص ٧٦ .

٣ ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ٤.

٤ أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٦٢؛ قنديل: أدب الرحلات، ص١٢٥.

الفصل الثاني

قراءة في التاريخ الاقتصادي للمشرق الإسلامي
في القرن الثالث الهجري من خلال أعمال الرحالة

يعد الاقتصاد من أهم متطلبات الحياة الإنسانية ، فكانت منذ القدم وعلى مر العصـــور ، تحتل المكانة المهمة في حياة البشرية ، فهي الشريان المهم الذي يروي ويؤثر في كافة الأحـــداث التاريخية سواء سياسية كانت أو حضارية ، وقد أفادت رحلات الرحالة المسلمين في ذكر الكثيـــر من الإشارات الاقتصادية ، فقد سجل الرحالة في رحلاتهم النشاط الاقتصادي للكثير مـــن المـــدن والبلدات التي زاروها في المشرق الإسلامي ، وتضمنت هذه الرحلات معلومات ذات قيمة كبيرة فيما يتعلق بأوجه النشاط الاقتصادي المختلفة من زراعة وتجارة وصناعة ، و بالتالي سيكون هذا الفصل محاولة لقراءة الواقع الاقتصادي في المشرق الإسلامي من خلال أعمال الرحالة في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

اولاً. الزراعة.

تعد الزراعة أهم جانب من جوانب العمران البشري ، وقد بدأ الاهتمام الفعلي بالجوانب المختلفة للزراعة منذ استقرار ونشوء دولة الرسول الكريم (ﷺ) ، في المدينة المنورة ، ومن هذا المنطلق سنحاول تحت هذا العنوان تسليط الضوء على واقع الزراعة في أقاليم المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري كما ورد في أعمال الرحالة .

أ .النشاطات والمحاصيل الزراعية في أقاليم المشرق .

لقد شكلت الزراعة في القرن الثالث الهجري جانباً حيوياً من جوانب الحياة الاقتصادية ، لأنها زودت بيت المال بموارد مالية كبيرة ومستمرة ، إضافة إلى اعتماد عدد كبير من المواطنين في حياتهم المعيشية على الزراعة والإنتاج الزراعي ، وعلى هذا الأســـاس فقـــد تـــم التطـــرق للنشاطات والمحاصيل الزراعية في أقاليم المشرق الإسلامي من خلال كتب الرحلات في القـــرن الثالث الهجري.

لقد أشار اليعقوبي في أثناء حديثه عن مدينة بغداد إلى خصوبة أرضها وصحة هوائهـــا وعذب مياهها فأدى ذلك إلى نشاط الحركة الزراعية ونموها حيث قال :((.....إن كل فصل ينتقل

من هواء إلى هواء ومن زمان إلى زمان فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثوى وعذب الماء وزكـت الأشجار وطابت الثمار وأخصبت الزروع وكثرت الخيرات))[١] .

كما استطاع اليعقوبي أن يقدم وصفاً متكاملاً لأراضي سامراء وسهولها الخصبة ،من خـلال حرص الخليفة المعتصم على اختيار حاضرة لدولته توفرت فيها المقومات الزراعية مـن تربـة خصبة وماء وهواء نقي ،كما أشار أيضاً إلى خصوبة أرض سامراء وجودة تربتها لذا ازدهـرت الزراعة بها ونمت مختلف المحاصيل والثمار ،".....فكثرت المياه في هذه العمارة مـن الجانـب الشرقي بسر من رأى وصلح النخل وثبتت الأشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان والبقل .... "[٢].

وتحدث ابن الفقيه من جانبه عن أهم منتجات البصرة الزراعية قائلاً :" ولأهل البصـرة مـن النخيل وأنواع التمور ما عدم مثله في جميع كور النخل "[٣].

وفي أثناء حديثه عن مدينة خراسان قال :" وبخراسان فواكه كثيرة سرية وأعناب طيبة وبطيخ يقدد وقد كان فيما مضى يحمل بطيخها إلى الخلفاء في قـدور نحـاس لشـدة حلاوتهـا ولـذتها وطيبها"[٤].

و أورد ابن رسته تفاصيل مهمة عن أهم حاصلات ومنتجات بلاد فارس الزراعية إذ يقـول عن مدينة أصبهان:" وتربتها أصح الترب تبقى بها الثمار سنة مثل العنب على رقة قشره والتفاح والسفرجل[٥] والرمان حتى يجمع فيها بين العتيق والجديد منها وتبقى بعد ذلك أيضاً مدة "[٦].

---

١ اليعقوبي : البلدان، ص ٤ .

٢ اليعقوبي : البلدان، ص ٣٠ .

٣ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٣ .

٤ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٥ .

٥ السفرجل: شجر يحمل ثمراً ذو رائحة عطرية يؤكل نيئاً أو تصنع منه المربيات ؛ مسعود (جبران): الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت ، ط٧ ، ١٩٩٢م ، ص ٤٤٢ .

٦ ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١٥٧ .

ويضيف "وبها من الزعفران[1] الذي وإن كان في غيرها من البلدان موجوداً فإن فضله على كـل ما في سائر المواضع منه ظاهر لأنه أذكى رائحة وأبين نفعاً وأشبع صبغاً في كل ما يستعمل ولا يبتاع في شيء من المواسم والأسواق التي يجلب إليها شيء منه ما يوجد زعفران أصبهان "[2].

وقال إن فيها فصيله شجر ، تحمل البق[3] في ظروف منفوخة رقيقة القشر على مقادير التفاح و فيها ما ينعقد فيستحيل صبغاً فيه أدنى حلاوة ، وهي شجرة مستديرة عظيمة طيبة الظل وتسمى بلغة أهلها (خشساية)، تفسيرها بالعربية الطيبة الظل[4].

وأشار ابن الفقيه إلى نوع عجيب من الشجر في مدينة شيراز[5]، إذ يقول :"....فيها شجرة تحمل التفاحة نصفها حلوة في غاية الحلاوة ونصفها حامضة في غاية الحموضة وليس بفارس كلها من هذا النوع إلا هذه الشجرة الواحدة "[6].

ويصف اليعقوبي مدينة شيراز قائلاً: "....ولها سعة حتى أنه ليس فيها منزل إلا وفيه لصـاحبه بستان في جميع الثمار والرياحين والبقول وكل ما يكون في البساتين "[7] .

وقد تحدثت كتب الرحلة والجغرافية عن مختلف الأنشطة الاقتصادية التي يمارسها أهل الهنـد وعلى رأسها الزراعة وذكروا مختلف المنتجات الزراعية في بلاد الهند فتحدث عنهـا اليعقـوبي وذكر :" المسك الهندي الذي كان يجهز في البحر ، والعنبر الشجري ، أجود أنواع العنبر وأرفعه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً وأغلاه قيمة ، وأما السنبل[8] الهندي فقـد قـال (السـنبل أصناف وأجوده العصافير الحمر الألوان المسلل ، والمسلل هو الذي نقي من زغبه ومسـح منـه

---

[1] الزعفران : نبات له أصل كالبصل ، زهره أحمر إلى الصفرة ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٤١٦ .

[2] ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص١٥٧.

[3] البق: جنس حشرات كالبعوض ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص ١٧٧ .

[4] ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١٥٩ .

[5] شيراز: بلد عظيم مشهور معروف مذكور ، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٣ ، ص ٣٨٠ .

[6] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٣ .

[7] اليعقوبي : البلدان، ص ١١٩

[8] السنبل : هو نبات طيب الرائحة؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٤٥٢ .

وبقي عصافير مجردة ، وإذا أمسكه الإنسان بكفه ساعة ثم أشتمه كانت رائحته كرائحة التفاح أو نحوها "[1].

وأشار ابن خرداذبة أن في جزيرة سرنديب الهندية ينبت شجر الكافور[2] تظل الشجرة مائة إنسان وأكثر و أقل ، ينقب أعلى الشجرة فيسيل منها من ماء الكافور عدة جرار ، ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فينساب منها قطع الكافور وهو صمغ ذلك الشجر[3]. وذكر سليمان التاجر أهم منتجات الهند وهي النارجيل[4] والفلفل والأرز والرمان[5] .

ب. نظم الري ضمن الأقاليم المشرقية.

نتيجة للحاجة الملحة لنظم الري ولغرض مراقبة التغير في المساحات المزروعة وطاقتها الإنتاجية والسعي للسيطرة على العوامل المؤثرة في الإنتاج سلباً سعت الدول على مختلف العصور التاريخية إلى تسخير وتوظيف التقنيات لغرض زيادة الإنتاج الزراعي في توفير الأليات التي تضمن تحقيق ذلك وبأفضل صورة ممكنة، وخلال القرن الثالث الهجري، وبالتحديد (العصر العباسي)، زاد الاهتمام بمشاريع الري، بالتالي سيتم رصد مدى اهتمام رحالة القرن الثالث الهجري بالحديث عن هذا الجانب .

فيذكر اليعقوبي:"أن الخليفة المنصور[6] جر إلى المدينة المدورة (بغداد) قناة تأخذ من نهر كرخايا الأخذ من الفرات في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج[7] والأجر[8] من أعلاها

---

[1] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٣ – ١٢٧.

[2] الكافور: نبات طيب ، زهره كزهر الأقحوان؛ مسعود: الرائد معجم لغوي عصري، ص ٦٥٥ .

[3] ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٦٥ .

[4] النارجيل : هو الجوز الهندي ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٨٧ .

[5] التاجر(سليمان ت:٢٣٧هـ/ ٨٥١م): عجائب الدنيا وقياس البلدان ، تح: سيف شاهين المريخي، مركز زايد للتراث والتاريخ، د.م ، د.ت، ص ٣١، ٥٧ .

[6] المنصور : هو عبد الله بن محمد بن علي – أبو جعفر– بويع بالخلافة سنة ١٣٦هـ /٧٥٣م، وهو الذي ضبط ورتب القواعد في الدولة العباسية ، مات سنة ١٥٨هـ /٧٧٤م؛ ابن طباطبا (محمد بن علي ت: ٣٢٢هـ /٩٣٣م) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، تح : عبد القادر محمد مايو ، دار القلم العربي ، حلب ، ط١ ، ١٩٩٧م ، ص ١٥٥.

[7] الصاروج : الكلس أو أخلاطه مما يستعمل في طلاء الجدران ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٤٨٧ .

[8] الأجر : طبيخ الطين أي اللبن المحرق المعد للبناء ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٢٢ .

معقودة عقداً وثيقاً ، فتدخل المدينة وتنفذ في أكثر شوارع الأرباض[1] تجري صيفاً وشتاءً قد هندست هندسة لا ينقطع لها ماء في وقت، وقناة أخرى من دجلة على هذا المثال وسماها دجيل ، وجر لأهل الكرخ وما اتصل به نهراً يقال له نهر الدجاج ، وإنما سمي نهر الدجاج لأن أصحاب الدجاج كانوا يقفون عنده ، ولهم الآبار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي عذبة شرب القوم جميعاً منها وإنما احتيج إلى هذه القنوات لكبر البلد وسعته وإلا فهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتى غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد أكثر منه بالبصرة والكوفة وغرسوا الأشجار وأثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والأجنة في أرباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها"[2].

ويشير اليعقوبي أنه عندما فرغ المعتصم بالله من خطط سامراء ووضع الأساس للبناء أمر باستقدام الكثير من المهندسين أصحاب الخبرة في استنباط الماء من الآبار ، لكن هذه الآبار لم تكن تصلح لعملية الزراعة والشرب، وذلك لارتفاع نسبة الملوحة بها ، كما أن كمية الماء الموجودة بها لم تكف لإتمام عملية الزراعة أو توفير مياه الشرب، ولكن أمر المعتصم بالله على إرواء مدينته من نهر دجلة عن طريق الروايا[3]، التي كانت تحمل فيها المياه على ظهور البغال والإبل[4]، على حد قول اليعقوبي ولكن كيف لهذه الروايا أن تتمكن من سد العجز المائي الضروري لإرواء مختلف المحاصيل والشرب والاستخدامات اليومية ، كما أن هذه الروايا صغيرة الحجم لم تستوعب كمية مياه كبيرة ؟....... وقد تنبه المعتصم بالله لهذه الصعوبات ، والمشقة على الأهالي لجلب الماء ، فولى وجهه شطر نهر دجلة ، وبدأ بتذليل هذه العقبة على الناس ، فقام باستنباط الماء من نهر دجلة ، وغيره من أفرع هذا النهر القريبة من سامراء فكانت

---

[1] الربض : هو ما حول المدينة أي ما هو خارج عن كتلتها السكنية الرئيسية أو خارج أسوارها ؛ السامي (عبد العال عبد المنعم): جغرافية المدن عند العرب ، د.د ، د.م ، ١٩٧٨م ،ص ١٣٩ .

[2] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٨، ١٩ .

[3] الراوية : وعاء مصنوع من جلد الثور ، يسع أربع قرب – والقربة هي سعة جلد ماعز من الماء و، وعادة ما كان البعير يحمل روايتين؛ عمارة (محمد): قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، بيروت، ط١، ١٩٩٣م ، ص٢٣٩ .

[4] اليعقوبي:البلدان، ص٣٠.

نتيجة ذلك الإصلاح المائي في منظومة الري أن تم تزويد المدينة بالماء الصالح للشرب والاستخدامات اليومية ، وإرواء البساتين وغيرها من الأغراض[١] .

أما في بلاد فارس يذكر ابن رسته أنه كان كسرى أزدشير[٢] قد جعل لكل قرية من قرى أصبهان حصة معلومة في أيام معدودة بفرض منصوبة ينساق عليها ماء لكل قرية حتى يستوفى كل حقه ونصيبه منه ، ويبين ابن رسته أنه من فضائل المياه وصحة التربة بأصبهان أن يخرج من مائها أيام الشتاء وشدة البرد وحال الجمد في الآبار المعدة لها فتفيض وتجري في العروق فتوديه في القيظ وشدة الحر ووقت الحاجة إلى الماء البارد على الحال الأولى في البرد حتى يستغنى به عن الجليد مع كثرته بأصبهان[٣].

ذكر ابن الفقيه أنه يقال أن أحد الروم لما أراد دخول أصبهان ليطلسم[٤]آفات مدينتها مر برستاق[٥] قد أضر الماء بزرعهم فاتخذ لهم طلسماً في جوف بئر إذا احتاجوا إلى الماء فاض البئر بماء غزير ليسقي أراضيهم ثم يتراجع بقية الماء إلى البئر[٦] .

كما أشار ابن خرداذبة إلى أن نهر زرين روز الذي يقع في أصبهان يسقى أراضيها ورساتيقها وهي سبعة عشر رستاقاً ، ثم يغور في رمل في آخرها ثم يخرج بكرمان ، على ستين فرسخاً من الموضع الذي غار فيه فيسقى أرض كرمان ثم يصب في البحر الشرقي[٧] .

ذكر ابن الفقيه أن في قرية مندان التي تقع على جبلين في إقليم فارس ، بينهما واد فيه ماء عذب غزير لا ينقطع شتاءً ولا صيفاً وعلى حافتي الوادي عيون تنصب إليه وشجر مثمر[٨].

---

[١] اليعقوبي: البلدان، ص٣٠.

[٢] كسرى أزدشير: هو أحد الملوك الأكاسرة في العالم؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج١، ص ٢٢.

[٣] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٥ .

[٤] الطلسم: خطوط وأعداد يستعملها السحرة ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي ، ص ٥٢٤.

[٥] الرستاق: هو القرية أو المحلة أو العسكر أو البلد التجاري ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٢٤٨

[٦] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦٦

[٧] ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٧٦ .

[٨] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٦.

وأضاف أن ببلخ[1] جيحون وهو نهرها العظيم وبينه وبين بلخ ١٢ فرسخاً[2]، وبخارى وجبالها وعيونها وأنهارها على الجانب المتقاصى في الشمال ، وكل واد يجيء من ناحية الشرق يصب في هذا النهر[3] . وقد أورد ابن الفقيه بعض عجائب نظم الري في بلاد فارس إذ يقول:" قالوا من عجائبنا المملحة التي برستاق الفرهان وهي شبه بحيرة تكون أربعة فراسخ طولاً في عرض فرسخ أقل وأكثر إذا كانت أيام الخريف واستغنى أهل الرستاق عن الماء للزراعة أنقى جميع مياه الرستاق إلى هذه البحيرة فلا يزال ينصب إليها الماء الخريف وطول الشتاء حتى إذا جاء الربيع واحتيج إلى الماء قطع الماء عن البحيرة فصار ذلك الماء كله ملحاً فتحمله الأكراد[4] إلى جميع بلدان الجبل"[5] . وقد استخدمت وسائل مختلفة للري أغفل الرحالة ذكرها، وهي الناعور[6]– الدولاب[7] – الدالية[8]– الشادوف[9] – البكرة[10] .

رغم الأهمية التي أولاها بعض الرحالة لنظم الري في عرض صورة عامة على بعض وسائل الري ببعض المدن والمناطق إلا أنهم أغفلوا ذكر وسائل ري أخرى ، ربما كونها لم يروا لها الكثير من الأهمية واعتبروها أمور عادية ، ولكن كل ما ذكر يؤكد على مدى أهمية أعمالهم في رصد جهود الحكومات في توفير المياه لما لها من دور هام في حياة الناس ، كما أن

---

[1] بلخ : مدينة مشهورة بخراسان تقع في الإقليم الخامس؛ الحموي : معجم البلدان، ج١ ، ص ٤٧٩ .

[2] الفرسخ : في المقاييس يساوي ثلاثة أميال ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٤٢٦ .

[3] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢٤ .

[4] الأكراد : هم أحد الأقوام التي سكنت المشرق الإسلامي ، ويرى أغلب الباحثين أنهم ينتمون إلى مجموعة من الأقوام الهند أوروبية ؛ خصباك (شاكر): الأكراد دراسة جغرافية اثنوجرافية ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٧٢م ،ص ٥٠٥ .

[5] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٤٥ .

[6] الناعور: هي أداة السقي للأراض الزراعية التي يديرها الماء؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص٥٨٣ .

[7] الدولاب: هو ما يديره الحيوان من أدوات السقي ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٢٢٢ .

[8] الدالية: من أدوات السقي في الزراعة ، عبارة عن دولاب يشغله الرجال ، عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص ٢٠٩ ؛ الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٧٣ .

[9] الشادوف: هو عبارة عن إطار معلق به عمود، في إحدى طرفي العمود الأطول يعلق وعاء للماء، وفي الطرف الآخر يعلق ثقل لموازنة عملية الرفع ، ويسقي أربعة أجربة في اليوم؛ الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٧٣ .

[10] البكرة: آلة مستديرة لسقي الأراضي الزراعية في وسطها محور تدور عليه ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ،ص ١٧٩.

المعلومات التي قدموها من شأنها أن تعطي دلالة على مدى التقدم الذي حققه العرب المسلمين في القرن الثالث الهجري في نظام الري، ومعلومات من هذا النوع من الصعب العثور عليها في المصادر التاريخية التقليدية.

ت- النقود والأوزان والأكيال.

أن للنقود ولوحدات الوزن والكيل أهمية كبيرة، إذ تجري بهما معاملات البيع والشراء في أسواق الدولة العربية الإسلامية ، وفي ضوء عيارها يؤدي المسلم بعض الفرائض المستحقة ، وقد تحدث رحالة القرن الثالث الهجري، عن أنواع النقود ووحدات الوزن والكيل التي كانت تستخدم في المشرق الإسلامي ، وسيحاول هذا المبحث توضيح ذلك :

-النقود:

لقد كانت الدولة العربية الإسلامية في القرن الثالث الهجري تتبع نظام المعدنين(الذهب والفضة) ، إذ كان أساس النظام النقدي يتمثل حسب ما ذكره الرحالة ابن الفقيه[١] وابن خرداذبة[٢] واليعقوبي[٣]في الدينار[٤] الذهبي والدرهم[٥] الفضي .

لكن الظروف التاريخية للبلاد الإسلامية لم تجعلها منطقة نقدية موحدة ، فبينما كان النقد مزدوجاً في مناطق ، كان فردي القاعدة في مناطق أخرى ، فكانت بخارى وسمرقند

---

[١] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٦٥ ، ٢٤٩ .

[٢] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣٨ .

[٣] اليعقوبي : البلدان، ص ١١، ٢٥ .

[٤] الدينار : نقد ذهبي مدور اختلفت موازينه وجودته وقيمته ونسبة الذهب فيه باختلاف الزمان والمكان ، وتعددت إضافاته في التسمية لأماكن ضربه وأسماء ضاربيه؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٢٢٥ .

[٥] الدرهم:فارسي معرب – والجمع : دراهم – : اسم لمضروب مدور من الفضة – اختلفت مقادير وزن الدرهم زماناً ومكاناً، وتعددت إضافته إلى أماكن ضربه،أو متولي ضربه؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص ٢١٤ .

وبعض مقاطعات بلاد فارس ضمن منطقة الفضة فتتعامل بالدراهم، فيـــذكر ابـــن خرداذبـــة أن لأهل بخارى دراهم يسمونها (الغطريفية)[١] و (المسيبية)[٢] و (المحمدية [٣])[٤].

أشار اليعقوبي أن لأهل بخارى دراهم شبيهة بالنحاس[٥]، وهنا ربمـــا يقصـــد اليعقـــوبي بالدراهم الغطريفية والمسيبية والمحمدية التي أشار إليها ابن خرداذبة ، التي كان لونها يختلف عن الدراهم القديمة لغلبة معدن النحاس عليها . يلاحظ أن الدراهم المسيبية والمحمدية كانـــت أوســـع انتشاراً من الغطريفية وهذا ما برز واضحاً من قوائم الخراج لأقاليم ومدن ما وراء النهر، التـــي كانت تدفع خراجها بالدراهم المسيبية والمحمدية معاً[٦] .

وأشار ابن رسته أن لأهل العراق عملة نقدية تسمى (الربع)[٧]، وهي من الدنانير والدراهم[٨] .

وإلى جانب الدرهم والدينار عرف أهل المشرق الإسلامي عملة (الفلس)[٩]، وهي عملة لـــم يذكرها رحالة القرن الثالث الهجري ، وإنما ذكرها آخرون، أمثال، المقدسي[١٠] التـــي وصـــفها (سود اللون)، نتيجة خلط المعادن الأخرى مع النحاس، ولهذا الخلط تكون قليلة القيمة .

---

١ الغطريفية : قيل أنها تنسب إلى غطريف بن عطا والي خراسان وهو أخ هارون الرشيد من أمه الخيزران ؛ العامري (هيام محمد): النشاط الاقتصادي في بلاد ما وراء النهر ، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ، لم ينشر، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٧م ، ص ٢٨٩ .

٢ المسيبية : قيل أنها تنسب إلى والي خراسان مسيب بن زهير (١٧٦هـــ ٨٧٣١م) ؛ العامري : النشاط الاقتصادي ، ص ٢٩٣ .

٣ المحمدية: قيل أنها تنسب إلى محمد بن عطا أخ مسيب والي خراسان ؛ العامري: النشاط الاقتصادي، ص٢٩٣.

٤ ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٣٨ ، ٣٩ .

٥ اليعقوبي : البلدان، ص ٥٨ .

٦ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣٨ ،٣٩ .

٧ الربع : نقد عباسي عرف في الدولة العباسية ، استحدثه الخليفة المأمون (٢١٨هـــ ٨٣٣١م)؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص ٢٤٢ .

٨ ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١٧١ .

٩ الفلس : نقد نحاسي كانت قيمته عشر القرش عرف في العراق وفي مصر؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص ٤٣٧ .

١٠ المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٣٤٠ .

يلاحظ من خلال القراءة الأولية أن النقود كانت متنوعة وليست موحدة وهذا يوضح الانقسام السياسي وتراجع مركزية الدولة العباسية، إذ إن ضعف الخلافة العباسية أدى إلى حدوث تغيرات جوهرية في العملة نتج عنها اختلاف أوزانها ونقاوة سبائكها بالقياس إلى المستوى العالي الذي كان عليه في السنوات الأولى للخلافة، وقد يعزى هذا التغير إلى تقلص نفوذ الخليفة، وتدهور الوضع الاقتصادي للدولة، إذ أخذ حكام الدويلات التي استقلت عن الخلافة العباسية يضربون أسمائهم على العملة العباسية بينما أصبحت سيادة الخليفة بالاسم فقط .ويشير سليمان التاجر[١] وابن خرداذبة[٢] أن لأهل الهند دراهم تسمى(الطاطرية)[٣] و(البغلية)[٤]، ولهم دنانير تسمى (السندية)[٥]،ولهم عملة نقدية تسمى (الفكوج)[٦] .

بناءً على ما ذكر، يلاحظ ان المعلومات التي أوردها الرحالة عن النقود في القرن الثالث الهجري كانت متشابهة في أغلب الأحيان ، ومتباينة أحياناً أخرى، ربما يعود هذا التشابه والتباين إلى السلطات الحاكمة في مدى فرض سلطتها على الولايات التابعة لها ، فالحاكم هو الذي كان يحدد أشكال النقود ومعدنها ،كذلك إلى طبيعة المناطق والمدن التي زارها الرحالة.

الأوزان والأكيال.

إن الأوزان والأكيال التي كانت مستعملة في المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري حسب ما ذكره الرحالة ابن رسته[٧] وابن خرداذبة[٨] وابن الفقيه[٩] واليعقوبي[١٠]

---

١ التاجر: عجائب الدنيا، ص ٥٠ .

٢ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٧ .

٣ الطاطرية : لم يتم العثور على ترجمة خاصة بها.

٤ البغلية: ينسب كما يقال إلى البغل وكان يهودياً يقوم على سك النقود في زمن بني أمية؛ السيرافي: رحلة السيرافي ، ص ٥٨ .

٥ السندية : كل دينار منها يباع بثلاثة دنانير؛ السيرافي : رحلة السيرافي ، ص ٩٤ .

٦ الفكوج : يساوي الف فلس ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٠ .

٧ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٤، ١٣٨ .

٨ ابن خرداذبة :المسالك والممالك ، ص ٨ ، ١٤ ، ١٨ .

٩ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٩ .

١٠ اليعقوبي : البلدان ، ص ٧ ، ٣١ .

هـــي: (القفيـــز[١] – الرطـــل[٢] – الكـــر[٣]– الجريـــب[٤] – المثقـــال[٥] – الطســـوج[٦] – الدانق[٧] . كما ذكر سليمان التاجر وابن خرداذبة[٨] أحد الأوزان والأكيال التي كانت تستعمل في بلاد الهند وهي (المنا)[٩] .

لا بد من الاشارة أنه كان للحضارة العربية الإسلامية في المشرق باع طويل في علم المكاييل والموازين ، اقتبست بعضها من الأمم الأخرى وبعضها تم إبداعه بما يتلاءم مع واقعها وظروفها ، وكانت هذه الوحدات تعد بما يتلاءم مع الشريعة الإسلامية ، بحيث لا يجوز لأحد تغيير ما قرره الشرع من هذه المكاييل و الأوزان بنقص ولا زيادة ، لأن في تغيرها تعطيل لما جاء به الشـــرع من الأحكام ، وإن مسألة امتلاك فكرة عن الأوزان والأكيال لها أهمية كبيرة فمن ناحية توضـــح حالة الأسواق ومدى الاختلاف بين مدينة وأخرى ، وتعطي فكرة عن التنوع التجاري بين مناطق العالم الإسلامي، ومعلومات من هذا النوع من الصعب إيجادها في كتب التاريخ التقليدية وهذا ما يؤكد أهمية كتب الرحلة.

---

[١] القفيز : يساوي ٣٣ لتراً ، أي ١٢ صاعاً ، أي كيلتان بمكاييلنا الحالية ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٤٦٤ .

[٢] الرطل: اختلفت مقاديره زماناً ومكاناً، وهو يساوي الآن ١٢ أوقية؛ هنتس (فالتر): المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، تر : كايل العسلي ، منشورات الجامعة الأردنية ، الأردن ، ١٩٧٠م، ص٣٥ .

[٣] الكر: في المكاييل بالعراق والكوفة والبصرة ، كان يساوي ١٢٠ قفيزاً ؛ هنتس: المكاييل والأوزان ، ص ٦٨ .

[٤] الجريب: يساوي ١٣٢ لتراً ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ١٤٧ .

[٥] المثقال : اختلف في مقداره زماناً ومكاناً ، وهو يساوي ستة دوانق والدانق أربع طسوجات ، والطسوج حبتان ، والحبة شعيرتان، فهو تسعة عشر قيراطاً وشعيرة ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٥١١ .

[٦] الطسوج: مقداره حبتان من الدوانيق، وهو ثلث ثمن المثقال؛ عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٣٥٢.

[٧] الدانق: قيل أنه يساوي عشر حبات من الشعير أو ثلاثة قراريط أو قيراطان ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية، ص ٢٠٩ .

[٨] التاجر: عجائب الدنيا ، ص ٥٠ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٥٦ .

[٩] المنا: مقداره رطلان ، وهو يستخدم في وزن الطيب ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٧٧٠ .

ث- الضرائب.

الجدير بالذكر أن الخلافة العباسية شهدت تطوراً حضارياً ملحوظاً في جوانبها كافة ، وهذا بدوره أنعكس بشكل إيجابي في أوضاعها العامة، ولا سيما (الجانب المالي)، إذ تحصلت لديها موارد من مختلف الأشكال ، وقد حاول البحث تسليط الضوء على (الضرائب)، في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري كما ورد في أعمال الرحالة .

وقد تضمنت الضرائب في بلدان المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري ما يلي :

١-الخراج.

وهو المال المفروض على ما يخرج من غلة الأرض وأرضها تسمى بالأراضي الخراجية ، وقد راعى المسلمون في تحديد مقدار الخراج حسب كثافة الزراعة و خصوبة الأرض ونوعية الإنتاج وأثمانه ، وطريقة السقي ، وكانت تدفع سنوياً بعد موسم الحصاد وتشمل المحاصيل الحبوب والأشجار المثمرة .

وكان أهم ما يميز كتب الرحلات في القرن الثالث الهجري ووجه أنظار البحاثة إليها هو إيرادهم لبيانات وإحصاءات كمقدار خراج المدن والأقاليم التي زاروها في المشرق الإسلامي ، وسيتم إدراج قوائم على شكل جداول تحتوي على قيمة خرج المدن التي أوردها الرحالة في مؤلفاتهم ، كمحاولة لإعطاء صورة واضحة عن مدى الدقة التي وصل إليها هؤلاء الرحالة فيما أوردوه من معلومات ، التي كانت تصب في الدرجة الأولى في مصلحة السلطات .

-مقدار خراج مدن المشرق عند ابن الفقيه:

المدينة	مقدار خراجها
السواد(العراق)	مائة ألف وعشرين ألف ألف درهم
فارس	ثلاثة وثلاثون ألف ألف درهم

أصبهان	سبعة آلاف ألف درهم
قم	ثلاثة آلاف ألف وأربع مائة ألف وخمسون ألفاً وثلاثمائة وثلاثون درهم
طبرستان	أربع مائة ألف وخمسون ألف درهم
خراسان	أربع مائة وأربعون ألف ألف وثمان مائة ألف وسبعة وأربعون ألف درهم
كرمان	ستين ألف درهم[١]

-عند ابن خرداذبة :

المدينة	**مقدار خراجها**
السواد (العراق)	عمر ابن الخطاب : مائة ألف ألف وثمانية وعشرين ألف ألف درهم. عمر بن عبد العزيز : مائة ألف ألف و أربعة وعشرين ألف ألف درهم. الحجاج بن يوسف الثقفي : ثمانية عشر ألف ألف درهم.
فارس	ثلاثة وثلاثون ألف ألف درهم
أصبهان	سبعة آلاف درهم
الري	عشرة آلاف ألف درهم
قومس[١]	ألفا ألف مائة ألف وستة وتسعون ألف درهماً

[١] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٦٣ ،٢٦٤ ، ٣٠٥ ، ٣٢٨ .

جرجان	عشرة آلاف ألف ومائة ألف وستة وسبعون ألفاً وثمان مائة درهم
كرمان	خمسة آلاف ألف درهم
نيسابور[٢]	أربعة آلاف ألف ومائة ألف وثمانية آلاف وتسع مائة درهم
طوس[٣]	سبع مائة ألف وأربعون ألفاً وثمان مائة وستون درهماً
بخارى	ألف ألف ومائة ألف وتسعة وثمانون ألفاً ومائتا درهم
سرخس[٤]	ثلاثمائة ألف وسبعة آلاف وأربع مائة وأربعون درهماً
هراة[٥]	ألف ألف ومائة ألف وتسعة وخمسون ألف درهماً
بلخ	مائة ألف وثلاثة وتسعون ألفاً وثلاثمائة درهم[٦]

وما يلاحظ على قائمة ابن خرداذبة أنه قدم معلومات أوسع لكور وأعمال خراسان عما سبقه ، ولعل من المفيد القول هنا أن قائمة ابن خرداذبة لكور الأقاليم أكثر القوائم التي يجب الأخذ بها والوقوف على معلوماتها ، لأنه تولى أعمالاً إدارية في هذه الناحية ، إذ أتاح له ذلك معرفة

[١] قومس: هي كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع وهي في ذيل جبال طبرستان؛ الحموي :معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤١٤ .

[٢] نيسابور: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة، تقع في بلاد فارس؛ الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٣٣١ .

[٣] طوس : هي مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ ؛ الحموي، معجم البلدان ، ج ٤، ص ٤٩ .

[٤] سرخس : مدينة قديمة من نواحي خراسان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ٢٠٨ .

[٥] هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٥، ص ٣٩٦ .

[٦] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٤ ، ٢١ ، ٢٩ -٣٩ ، ٤٨ .

المناطق بصورة واضحة ، فضلاً عن اطلاعه على سجلات الدولة ، كما يدعو للاعتقاد أنه أخذها من مصادر إدارية موثقة .

-عند ابن رسته :

المدينة	مقدار خراجها
السواد (العراق)	عمر بن الخطاب : ستة وثلاثين ألف ألف درهم. عمر بن عبد العزيز : مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف درهم . الحجاج بن يوسف الثقفي : ثمانية عشر ألف ألف درهم.
طبرستان	أربع مائة وخمسون ألف درهم
أصبهان	عشرة آلاف ألف وثلاثمائة ألف درهم[١]

-عند اليعقوبي :

المدينة	مقدار خراجها
بغداد	اثنا عشر ألف درهم
سامراء	مستغلات الأسواق عشرة آلاف ألف درهم سنوياً ، خراج الزرع أربعمائة ألف درهم
من كور الجبل	ماسبذان[٢] : ألفي ألف وخمسمائة ألف درهم

[١] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٤ ،١٠٥ ، ١٥٠ ، ١٥٦ .

[٢] ماسبذان : بلدة في بلاد فارس ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٤١ .

	الدينور[1]: خمسة آلاف ألف وسبعمائة ألـــف درهم
قزوين وزنجان	ألف ألف وخمسمائة ألف درهم
أذربيجان	أربعمائة آلاف ألف درهم
همذان[2]	ستة آلاف ألف درهم
نهاوند[3]	ألفا ألف درهم
الكرج[4]	ثلاثة آلاف ألف درهم
قم	أربعة آلاف ألف وخمسمائة ألف درهم
أصبهان	عشرة آلاف درهم
الري	عشرة آلاف ألف درهم
طبرستان	أربعة آلاف ألف درهم
جرجان	عشرة آلاف ألف درهم
نيسابور[5]	أربعة آلاف ألف درهم

[1]: الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ينسب إليها خلق كثير؛ الحموي: معجم البلدان، ج ٢، ص٥٤٥ .

[2] همذان : بلد في بلاد فارس ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤١٠ .

[3] نهاوند:هي مدينة عظيمة في بلاد فارس وهي قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام؛الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣١٣.

[4] الكرج : هو جبل من الناس نصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلد السرير فقويت شوكتهم حتى ملكوا مدينة تفليس ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٦ .

[5] نيسابور: هي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء تقع في بلاد فارس ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٥ ، ص٣٣١ .

سجستان	عشرة آلاف ألف درهم
بخارى	ألف ألف درهم
خراسان	أربعين ألف ألف درهم سنوياً من جميع الكور إضافة إلى الأخماس[١] التي تؤديها الثغور[٢]

تمكن اليعقوبي من الحصول على هذه القوائم من السجلات الرسمية الخاصة بكل مصر ، كما تمت الإشارة إليها باعتباره موظف حكومي من قبل السلطات ، ويلاحظ من خلال هذا الجدول أن اليعقوبي أعطانا صورة واضحة عن مدى الدقة التي وصل إليها هذا الرحالة فيما أورده من معلومات ، ليتعدى هذا المؤلف اختصاصه الجغرافي إلى ما يفيد المهتمين باقتصاديات الأقاليم وأحوالها المادية خلال حقبة زمنية معينة .

تماشياً مع ما تم ذكره يلاحظ أن قيمة الخراج التي أوردها الرحالة عن مدن المشرق الإسلامي كانت متباينة أحياناً ومتشابهة أحياناً أخرى ، ويعود ذلك إلى العامل الزمني حيث أن الوقت الذي زار به الرحالة هذه المدن كان في أزمنة مختلفة ، إذ إن في كل زمن كان يتم تغيير مقدار الخراج بناءاً على أوامر الحاكم أو السلطات ،أو بناءً على الظروف المناخية التي تتعرض لها منطقة وأخرى.

ولا بد من الإشارة إلى أن جباية مال الخراج كان يتم عن طريق ديواناً خاصاً ينظم شؤون جبايتها ويشرف على توزيعها ، يسميه اليعقوبي ب (ديوان الخراج)[٣] .

٢ الجزية.

هي ضريبة تؤخذ من أهل الذمة مقابل حماية الدولة لهم وشملت اليهود والنصارى وحتى المجوس[٤] .

[١] الأخماس: هي غنائم أهل الحرب ، وهي حق ولي الأمر؛عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص٢٠٠.

[٢] اليعقوبي : البلدان ، ص ٤٤ – ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٨ ، ٧٢ .

[٣] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٣ .

[٤] سوف يكون هناك ترجمة خاصة باليهود والنصارى والمجوس في الفصل الأخير من الرسالة .

تعد أموال الجزية المصدر الثاني المهم من المصادر المالية للدولة الإسلامية ، فقد أوجبت على أهل الكتاب استناداً إلى ما ورد في القرآن الكريم فقال تعالى :﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الأخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾[١] .

ذكر ابن رسته وابن الفقيه أن أهل أصبهان كانوا مجوساً فأخذوا بالجزية[٢] ، وأشار ابن خرداذبة أن الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ختم على خمس مائة ألف إنسان من السواد للجزية على الطبقات[٣] ، وأوضح أنه كان يأخذ من اليهود والمجوس ديناراً في السنة ويؤخذ من كل بيت يوقد فيه نار في السنة ستة دراهم[٤].

يبدو لنا من خلال ما ذكر أعلاه أن هذه المناطق كانت تضع ضرائب ثقيلة على اتباع الديانة المجوسية دون غيرهم ، هؤلاء ليسوا على أحدى الديانات الكتابية ، فهم عبدة النار .

كما نستنتج من ذلك أيضاً بأن الدولة العباسية ، لم تقتصر في ضرائبها على ضريبة الأرض كخراج أو على ضريبة الرأس كجزية ، إذ يؤكد اليعقوبي أنه كانت هناك ضرائب أخرى تفرض على الحوانيت والأسواق ، وقدر اليعقوبي مقدار هذه الضرائب في بغداد بأثني عشر ألف ألف درهم سنوياً ، وهناك ضرائب تفرض على الطواحين في العصر العباسي ، فأشار اليعقوبي أنه في بغداد كانت الرحا[٥] المشهورة برحا البطريق تغل مائة ألف ألف درهم في السنة[٦] .

كل هذه المعلومات تعطي مؤشرات على مقدرات الدولة المالية وعن ألية إدارتها المالية للمقاطعات ، بالتالي تساهم في رسم صورة عن تطور النظام المالي ، أو التعرف على النظام المالي للمشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري ،وبهذا الشكل تسهم كتب الرحلة في إعادة رسم التاريخ الاقتصادي للمشرق الإسلامي.

---

[١] القرآن الكريم : سورة التوبة ، الآية ٢٩ .

[٢] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٦ ؛ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦١ .

[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٤ .

[٤] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١١١ .

[٥] الرحا : هو الطاحون ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٨٧ .

[٦] اليعقوبي : البلدان ، ص ١١ ، ٢٢ .

ج- الثروة الحيوانية.

تعد الثروة الحيوانية جانباً متمماً للنشاط الزراعي ، وتعتمد عليه في تنميتها وتطويرها ، إذ شكلت هذه الثروة بمختلف أصنافها ، عماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية والجمالية لدى سكان المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، إذ اعتمدوا عليها في حلهم وترحالهم ، ولم يستطيعوا الاستغناء عنها ، وصارت لها المكانة المتميزة في حياتهم .

لقد بين القرآن الكريم أن الحيوانات جزء هام في المنظومة الكونية لما فيها فائدة كبيرة للإنسان وأن الخالق سبحانه قد خلقها وسخرها للإنسان للاستفادة منها في مجالات متنوعة ، قال تعالى :﴿ و الأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون۝ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون۝ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرءوف رحيم ۝والخيل و البغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾[1] .

لقد اهتم المسلمون ومنهم العباسيون بحماية الحيوانات بكافة أنواعها ، فقد أنشئوا ما يسمى بالحير[2] ، لغرض حماية كثير من الحيوانات المعرضة للانقراض والضعيفة والجميلة ، يقول اليعقوبي :"…. وهذه الشوارع التي من الحير كلها اجتمعت إلى إقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائطاً غيره وخلف الحائط الوحش من الظباء[3] والحمير الوحش والأيايل[4] والأرانب والنعام[5] ، وأشار اليعقوبي إلى أن سكان المشرق اهتموا بتربية البغال والإبل لما لها من فائدة كبيرة من استخدامها في حمل الأمتعة والروايا[6] ، ويبين أن في بغداد مرابط دواب العامة

---

[1] القرآن الكريم : سورة النحل ، الآية ٥ – ٨ .

[2] الحير : هو مكان متسع جداً ومحصن يمكن أن يستعمل في بعض الأوقات كحظيرة تتمركز فيها قوة عسكرية ضاربة أو تلجأ إليها في حالة معينة ، ويمكن أن يستعمل كحديقة للحيوانات ؛ الجبوري (حمدية صالح) السويطي (محمد حسين علي): حدائق الحيوان دراسة في جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر العباسي الأول ١٣٢– ٢٤٧هـ ، مجلة كلية التراث الجامعة، العدد ٣٣، ٢٠١١م ، كلية التراث الجامعة ، العراق ، ٢٠١١م، ص ٢٨٧ .

[3] الظبي : هو الغزال ، مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٥٢٩ .

[4] الأيل : حيوان لذكوره قرون متشعبة يعرف بالوعل ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ١٥٧ .

[5] اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٩ .

[6] اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٠ .

ومواضع نخاسي[١] الدواب[٢] "، وما يفسر ذلك أنه كان للحيوانات سوق تجاري يتم فيه بيعها وشرائها.

كما كان لتربية الأبقار أهمية كبيرة في بلدان المشرق الإسلامي فإضافة إلى منفعتها في اللحوم و الألبان فإنها كانت تستخدم لحرث الأراضي الزراعية ، فيذكر ابن خرداذبة أن أهل السواد(العراق) ، منعوا من ذبح البقر لتكثر الزراعة ، وفضلاً عن ذلك فقد عرفت بلاد ما وراء النهر بكثرة الدواب فيها ولهذا كانت تفرض ضمن الجباية السنوية إرسال أعداداً كبيرة منها[٣] .

ومن بين الدواب الأخرى التي عرفت في المشرق (البراذين)، إذ يوصفها لنا ابن خرداذبة بأنها دابة طولها في السماء ثلث أذرع بذراع سوداء وعرضها ذراع أيضاً ، وقد نقل لنا ابن خرداذبة قصة طريفة تحدث بها عن أصل هذه البراذين التي يحمد جنسها قائلاً :" أنه كان في زمن مالك هناك يسمى بيك، له رمك[٤] ، كثيرة يرسلها في الكلاء ترعى في المراعي وتأوي إلى تلك العين في الهاجرة إلى ظل شجرة تقيل هناك ويجمع الراعي إليها دوابه وهي واسعة عريضة مقدار أربع مائة ذراع في مثلها فيها ماء ساكن راكد صاف فرأى الراعي يوماً وقد انتبه من نومه في براذينه برذوناً طويلاً كأطول ما يكون فظهر له برأي العين شيء هائل فطغق يرصد أي شيء هو إذ دنا وقت العصر فغاص في العين فبقي الراعي متحيراً فما زال كذلك يأوي إلى تلك العين مترصداً حتى إذا كان ذات يوم خرج ذلك البرذون بعينه ومعه مهرة وبراذين سواء كثيرة واختلطوا ببراذينه دائماً في المرعى حتى اعتادوا مع براذينه وألقح هذا البرذون مهراً من مهارة ذلك الملك التي مع الراعي فنتجت مهراً كباراً جياداً ، فلما رأى ذلك الراعي سر واستبشر وأخبر بذلك سيده فعظم سرور الملك وخرج للصيد مائلاً إلى مرعى براذينه وأمر رائضه أن يتوهق[٥]

---

[١] النخاس : هو بائع الدواب أو دلالها ؛مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٩٨ .

[٢] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٣ .

[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥ .

[٤] الرمك : الفرس التي تتخذ للنسل ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٠٣ .

[٥] الوهق: حبل في أحد طرفيه عقدة يطرح في عنق الدابة أو الإنسان حتى يوخذ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص ٨٧٤ .

مهرأ من تلك المهر التي من نتاج الفحل الذي في العين فرمى بالوهق مهراً منها فركبه فإذا هو كأنه يطير بين السماء والأرض سلس اللجام[١] خفيف في النهوض[٢] ...." .

تحدث ابن الفقيه أنه في قرية قرميسين[٣] حيوان يدعى(شبديز) وكان من أذكى الدواب وأعظمها خلقاً وأطهرها خلقاً وأصبرها على طول الركض ، فكان لا يبول ولا يروث ما دام عليه سرجه[٤] ولجامه ، وهذا الحيوان من إهداء ملك الهند إلى ملك فارس[٥]

أشار ابن الفقيه أن أهل سجستان كانوا يربون القنافذ في منازلهم ، وذلك لأن أفاعيها كثيرة وقل بيت لا يكون فيه قنفذ[٦] . أما بلاد الهند فقد اشتهرت بتربية الجواميس ، وقد وصف ابن خرداذبة جواميسها قائلاً:((وبها جواميس لا أذناب لها))، ومن بين الحيوانات الأخرى التي كثر انتشارها في الهند(الكركدن)، وهو دابة دون الفيل وفوق الجاموس يأكل الحشيش ويجتر كما يجتر البقر والغنم[٧].

كما وصف سليمان التاجر شكل هذا الحيوان بالتفصيل قائلاً :" له في مقدمة جبهته قرن واحد وفي قرنه علامة صورة خلقة كصورة الإنسان في حكايته، القرن كله أسود، والصورة بيضاء في وسطه، يشبه الجاموس قوي ليس كقوته شيء من الحيوان وليس له مفصل في ركبته ولا في يده وهو من لدن رجله إلى إبطه ، قطعة واحدة ، والفيل يهرب منه ، وهو يجتر كما تجتر البقر و الإبل ولحمه حلال قد أكلناه[٨] ".

أما المصدر الأخر من مصادر الثروة الحيوانية المهمة ، هو السمك ، وكان يكثر في سواحل البحر الشرقي (البحر العربي ، وتحديداً على سواحل بلاد فارس وبلاد الزنج والحبشة)

---

[١] اللجام : موضع اللجام من وجه الدابة أو فمها ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٦٨٦ .

[٢] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٨٠ .

[٣] قرميسين : بلد معروف في فارس وبينه وبين همذان ثلاثون فرسخاً قرب الدينور وهي بين همذان وحلوان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٣٠ .

[٤] السرج : هو ما يوضع على ظهر الدابة ليركب ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٣٨ .

[٥] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٨ .

[٦] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢١٤ .

[٧] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٣ ، ٦٥ .

[٨] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٤٧ .

، ويصف لنا ابن خرداذبة مقدار طول تلك الأنواع من الأسماك ، لكنه لم يذكر أسماء هذه الأنواع ، وأنما اكتفى بوصفها قائلاً :" فيه سمك طول السمكة مائة باع[١] ومائتا باع ، وفيه سمك طـــول السمكة عشرون ذراعاً من جوفها مثلها وفي الأخرى مثلها إلى أربع سمكات "[٢] .

إن المعلومات التي قدمها الرحالة عن الثروة الحيوانية تؤكد مدى أهمية معلوماتهم لرســـم صورة متكاملة للتاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، أعطوا لنا وصـــفاً دقيقاً في أنواع الثروة الحيوانية التي كانت موجودة في المشرق الإسلامي ، وبالرغم من مبالغتهم في بعض الأحيان حول وصف بعض الحيوانات ، ويبدو أنهم شاهدوا بعينهم أو سمعوا من بعض التجار أنواع وأوصاف تلك الحيوانات ، فأعطوا لنا بالتالي وصفاً رائعاً ودقيقاً في هـــذا الجانـــب ،ويمكن القول إن معلومات من هذا النوع سيكون من الصعب العثور عليها في الأنواع الأخـــرى من المصادر التاريخية.

ثانياً- التجارة.

احتلت التجارة في المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري مكانة متميـــزة ، لمـــا أدخله التجار من أنواع التجارات من بضائع وسلع ، وكانت تلك التجارات التي تشبعت بها بغداد ، حاضرة الخلافة العباسية وغيرها من مدن المشرق ، تأتيها من كل حدب وصوب من بلاد العالم المجاورة ، وحتى البعيدة منها ، فقد تمتعت التجارة خلال القرن الثالث الهجري في ظل العـــرب والمسلمين بالحماية والرعاية والتنشيط ، وكانت التجارة الإسلامية مظهراً من مظـــاهر الأبهـــة ، وهي السيدة في بلادها ، وأصبحت سفن المسلمين تجوب كل البحار والبلاد ، وأخـــذت قـــوافلهم وتجاراتهم المكانة الأولى في التجارة العالمية ، وسنحاول من خلال الكتب التي بين أيدينا تأكيـــد هذه النظرية ، وبالتالي سيكون هذا المبحث محاولة لتسليط الضوء على واقع التجارة في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من خلال مؤلفات الرحالة العرب والمسلمين .

أ – الطرق التجارية.

لعبت طرق التجارة دوراً محورياً في تشكيل مسار تاريخ البشرية ، وقد سهلت هذه المسارات تبادل السلع والأفكار والثقافات بين المناطق البعيدة . لا يمكن المبالغة في القول في أهمية طـــرق

---

[١] الباع : في المقاييس قدر مد اليدين وما بينهما؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٧٩ .

[٢] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٠ .

التجارة ، لأنها لم تغذي النمو الاقتصادي فحسب بل عززت أيضاً العلاقات السياسية والانتشار الثقافي في بلدان المشرق الإسلامي ، وتقسم الطرق التجارية إلى قسمين برية وبحرية .

١ – الطرق البرية.

الطريق الأول : إلى الشرق من بغداد إلى همذان والري ونيسابور وطوس وهراة والذي ينتهي إلى بخارى وسمرقند وبلاد الصين[١] .

الطريق الثاني : الطريق الشمالي من بغداد إلى الموصل وسنجار[٢] ونصيبين[٣] والرقة و طبرية[٤] والرملة[٥] ثم القاهرة و الإسكندرية[٦] .

الطريق الثالث: يبدأ هذا الطريق البري من الأندلس أو من فرنجة فيعبر السوس الأقصى[٧] إلى طنجة[٨] ثم إلى أفريقيا ثم إلى مصر ثم إلى الرملة وإلى دمشق ثم إلى الكوفة ثم إلى بغداد ثم إلى البصرة ثم إلى الأهواز[٩] ثم إلى فارس وإلى كرمان ثم إلى السند ثم الهند وإلى الصين[١٠] . وهناك طريق بري آخر لعب دوراً هاماً في التجارة الدولية ، وأقصد الطريق الممتد

---

[١] ابن رسته: الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٣ – ١٧٣ .

[٢] سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها و بين الموصل ثلاثة أيام؛ الحموي: معجم البلدان، ج٣، ص٢٦٢ .

[٣] نصيبين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام ؛ الحموي : معجم البلدان، ج٥، ص ٢٨٨ .

[٤] طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طريق جبل وجبل الطور مطل عليها ، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧ .

[٥] الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين تقع في الإقليم الرابع ؛ الحموي : معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٩ .

[٦] ابن خرداذبة:المسالك والممالك، ص٩٢–٩٥.

[٧] السوس الأقصى : مدينة بالمغرب ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

[٨] طنجة : مدينة في المغرب تقع على ساحل البحر ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٣ .

[٩] الأهواز : كورة بين البصرة وفارس تقع في الإقليم الثالث ؛ الحموي : معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨٥ .

[١٠] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٥ .

من بلاد الروس الشمالية إلى شمال بحر قزوين إلى جرجان وبخارى ومرو[١] وسمرقند في بــلاد ما وراء النهر ثم منحدراً إلى بغداد ثم إلى الصين[٢].

٢ – الطرق البحرية.

الطريق الأول : طريق الصين – الهند ، الخليج العربي ، وهو طريق بحري حتى رأس الخليج العربي وبوصول المتاجر إلى رأس بحر فارس مروراً بموانئ هامة مثل الأبلة[٣] وسيراف .

وإذا تتبعنا مسلك التجار المسلمين في هذا الطريق إلى الصين ، فسليمان التــاجر وابــن الفقيه أشارا أن الرحلة تبدأ من بغداد إلى البصرة ومن البصرة إلى عمان على الساحل في مدخل بحر العرب[٤] إلى مسقط [٥] ومنها إلى كولوملي[٦] بينها وبين مسقط مسيرة شهر ومنها إلى بحــر الهركند[٧] ثم إلى بحر كله بار [٨] في مملكة الزابج[٩]. ومنها إلى بتومة[١٠] بعد عشرة أيام ثم إلــى كردنج[١١] بعد مسيرة عشرة أيام ثم إلى الصنف[١٢] في موضع يقال لــه صــندرفولان[١٣] وبعــد

---

١ مرو : أشهر مدن خراسان وقصبتها ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ١١٢ .

٢ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

٣ الأبلة: بلد على شاطئ دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة ؛ الحموي : معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧ .

٤ بحر العرب: هو جزء من المحيط الهندي يقع بين سواحل شبه الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية؛ باليدييه (آن لوفيفر) : البحار والمحيطات ، تر : زينب منعم ، د.د ، الرياض ، ط١ ، ٢٠١٥م ، ص ١٠٤ .

٥ مسقط: مدينة من نواحي عمان في أخر حدودها مما يلي اليمن على ساحل البحر؛ الحموي : معجم البلدان، ج ٥ ، ص ١٢٧ .

٦ كولوملي : مدينة عظيمة بأرض الهند ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٨ .

٧ بحر الهركند : هو بحر في أقصى بلاد الهند بين الهند والصين ؛ الحموي : معجم البلدان، ج ٥، ٣٩٩ .

٨ بحر كله بار : بحر يقع في الهند ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٩ .

٩ مملكة الزابج : هي سومطرة في إندونيسيا ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٩ .

١٠ بتومة : هي جزيرة عامرة في بلاد الهند ولباس أهلها الأزر وبها مياه عذبة وأرز وقصب سكر؛ التاجر: عجائب الدنيا ، ص ٣٩ .

١١ كردنج : لم يتم العثور على ترجمة لهذا الموضع .

١٢ الصنف : موضع في بلاد الهند أو الصين بالقرب من البحر الأحمر ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٤٠ .

١٣ صندرفولان: هي جزيرة عظيمة في البحر في بلاد الهند فيها مياه عذبة وزرع ؛ التاجر: عجائب الدنيا، ص ٤٠ .

مسيرة عشرة أيام إلى موضع يقال له بحر الصنج[1] ومنه إلى أبواب الصين بعد مسيرة شهر من صندرفولان[2].

الطريق الثاني : الطريق الذي يبدأ من الغرب إلى الشرق عن طريق مصر ويقوم به تجار اليهود ويبدأون رحلاتهم التجارية فيه من بروفانس التي يسميها العرب (فرنجة) ، في البحر الغربي وترسو سفنهم إما عند الفرما[3] أو الإسكندرية التي كانت ملتقى التجارة العالمية ومنها تنقل إلى الفسطاط[4] أو القاهرة عن طريق النيل وتنقل السلع من الفسطاط إلى القلزم[5] ومنها إلى البحر الأحمر عبر موانئه الهامة مثل جدة حتى تصل السفن إلى الهند والصين ، وهذا الطريق أطلق عليه ابن خرداذبة مسلك تجار اليهود الرازانية[6] الذين كانوا يتكلمون العربية والفارسية والرومية والصقلبية[7] .

الطريق الثالث : الطريق من بلاد الروس الشمالية عن طريق بحر قزوين إلى مرو حاضرة خراسان ومنها إلى بلخ وبخارى وسمرقند في بلاد ما وراء النهر ومنها إلى الصين وهذا الطريق وصفه ابن خرداذبة بأنه مسلك التجار الروس في البحر الذين يحملون معهم نفس السلع التي يحملونها في البحر من جلود الخز والثعالب والسيوف والعسل وكان المسلمون يأخذون من هؤلاء التجار الجزية باعتبارهم مسيحيين [8].

نستنتج بأن ابن خرداذبة أعطانا وصفاً دقيقاً لتلك الطرق البحرية فلا بد أنه أدرك ركوب البحر ، فضلاً عن مخالطته لبعض البحارة لذلك جاءت معلوماته صحيحة ودقيقة .

ولا بد من الإشارة إلى الطرق النهرية التي لعبت دوراً في التبادل التجاري في المشرق الإسلامي ، فيذكر اليعقوبي أمراً :" أن نهرا دجلة والفرات اللذان يجريان في حافة بغداد يأتيهما

---

[1] بحر الصنج : لم يتم العثور على ترجمة لهذا الموضع .
[2] ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ، ص ١١ – ١٣ ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٦ – ٤٠ .
[3] الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر، تقع في الإقليم الثالث؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤، ص٢٥٥ .
[4] الفسطاط : مدينة في مصر ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .
[5] القلزم: بلدة على ساحل بحر اليمن وإلى هذه البلدة ينسب بحر القلزم؛ الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص٣٨٧ .
[6] اليهود الرازانية : نسبة إلى نهر الرون ؛ حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٣ ، ص ٣٣٤ .
[7] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .
[8] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

التجارات براً وبحراً وبأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام فإنه يحمل إليها من الهند والسند والصين والترك والديلم وسائر البلدان حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها"[1].

وتجدر الإشارة إلى أن أحوال التجارة النهرية في دجلة ملائمة جداً على نحو لا نظير له ، ويعزى السبب في ذلك ، بأن مستوى نهر الفرات أعلى بقليل من مستوى نهر دجلة ، وهذا جعل سير السفن بحمولتها يسيراً ، وبالتالي شكل حركة تجارية واسعة من النقل النهري ، إن كل ذلك يعني عدم وجود عائق ملاحي في نهر دجلة مما يؤثر في سير السفن .

كما أن نهري سيحون وجيحون (في ما وراء النهر) ، هما النهران اللذان كان يتم فيهما نقل السلع والمنتجات إلى مناطق بلدان فارس وإلى البلدان المجاورة .

وعليه، يمكن القول أن للطرق التجارية دوراً مهماً في حياة السكان ، إذ تطورت معيشتهم اقتصادياً نتيجة التجارة فكان انتعاشاً اقتصادياً وتطوراً زراعياً وعمرانياً وحضارياً .

بناءً على ذلك نرى أن الرحالة قدموا خارطة طرقية برية وبحرية لأهم المسالك التي كان بإمكان التجار اعتمادها في تنقلاتهم خلال القرن الثالث الهجري، ومن شأن معلوماتهم أن يسهل على من يرغب بالتجارة أن يطلع على مؤلفاتهم كي يتمكن من اختيار الطريق الذي يناسبه، بالإضافة إلى هذا يوضح مدى الازدهار التجاري من خلال الأمان الذي توفر على الطرقات حيث أنهم لم يشيروا إلى الأخطار التي كان بالإمكان مقابلتها أثناء التنقلات ، وهذا يدل على قوة الدولة وعلى حالة السلم والأمن التي تمتعت بها بلدان المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري .

ب – القوافل التجارية ودورها في تنشيط التبادل التجاري.

للقوافل التجارية ممرات ودروب ، شقت طريقها براً وبحراً لتمد جسور التجارة الأولى ، ولتكون شواهد تاريخية لعلاقة الإنسان بالبيع والشراء ، على ظهور الإبل تارة وبين عربات تجرها الخيول إلى سفن شقت عُباب البحر ، نقلت البضائع وتوزعت على الأقطار ، وقد ورد

[1] اليعقوبي: البلدان، ص ٣ .

مصطلح القافلة في القرآن الكريم في قوله تعالى :﴿لإيلاف قــريش۝ إيلافهــم رحلــة الشــتاء والصيف ﴾[١]، وهذه إشارة إلى اعتماد عرب قريش على تجارة القوافل .

كان عماد القوافل التجارية في المشرق الإسلامي برياً (الإبل) ، التي هي واسطة لنقــل البضائع ، لما لهذا الحيوان من قدرة على تحمل العطش ، وسد رمقه من الجوع بالنباتــات التــي تنبتها البادية ، فيصف القرآن الكريم الإبل وصفاً متميزاً لقوله تعالى: ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبــل كيف خلقت ﴾[٢]، أما بحرياً (السفن) ، التي هي أيضاً واسطة لنقل البضائع ، فقد كانــت ســفن المسلمين تجوب الأنهار والبحار ، إذ أدركوا موقع بلادهم في وسط العالم الذي تحيط به السطوح المائية من أهم أجزائه .

فيذكر ابن الفقيه وابن خرداذبة أن قوافل التجار اليهود كانــت تجلــب مــن المغــرب الخدم والجواري[٣] والغلمان[٤] والديباج وجلود الخز والفراء والسمور[٥] والسيوف ثــم يركبــون قوافلهم في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور وغير ذلــك ممــا يحمــل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونه إلى الفرما ثم يركبون في البحــر الغربــي، فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الــروم وربمــا صــاروا بهــا إلــى ملــك فرنجة فيبوعونها هناك، وإن شائوا حملوا تجاراتهم من فرنجة في البحــر الغربــي فيخرجــون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلث مراحل[٦] إلى الجابية[٧]، ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم

[١] القرآن الكريم : سورة قريش ، الآية ١ ، ٢.

[٢] القرآن الكريم : سورة الغاشية ، الآية ١٧ .

[٣] الجارية: هي العبدة الخادمة؛ سعد (فهمي): العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة دراسة في التاريخ الاجتماعي، دار المنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م، ص١٤٣؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص ٢٦٤ .

[٤] الغلام : هو الأجير الخادم ؛ سعد : العامة في بغداد ، ص ١٤٤ ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٥٨٢ .

[٥] السمور : شجر كبير جيد الخشب ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٥٠ .

[٦] المرحلة : في المقاييس تساوي ميل بالهاشمي وتساوي بالمتر ٧٥٠ ، ٩٩ متراً ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٥٢٧ .

[٧] الجابية : بلدة قريبة من أعمال دمشق ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٩٠ .

يركبون في دجلة إلى الأبلة ومن الأبلة إلى عمان والسند والهند والصين كل ذلك متصل بعضه ببعض[١].

ويشير ابن خرداذبة أن قوافل التجار الروس كانت تحمل جلود الخز وجلود الثعالب السود والسيوف من أقصى صقلبة[٢] إلى البحر الرومي فيعشرهم صاحب الروم .....،ثم يصيرون إلى بحر جرجان وربما حملوا تجاراتهم من جرجان على الإبل إلى بغداد[٣] .

ذكر ابن رسته أن قوافل التجار المسلمين أتت إلى بلاد البلغار وكانت هذه القوافل تحمل من هناك الحبوب من الحنطة والشعير والدخن[٤].

قال اليعقوبي إن قوافل التجار المسلمين العظام كانت تمر من نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم نهر الفرات تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر ، ويضيف ، أنه كانت قوافل التجار تدخل إلى كابل[٥] ويحملون منها أصناف من السلع والمنتجات وأهمها الأهليلج[٦] الكابلي الكبار[٧] .

كما ذكر اليعقوبي أن قوافل التجار المسلمين كانت ترسى على ساحل مدينة (خانقو) ، وهي المدينة العظمة التي هي مرقاة الصين وأهم ما تحمل هذه القوافل في البحر (المسك الصيني

---

١ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٠ ، ٢٧١ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ .

٢ صقلبة : بلد بين البلغار وقسطنطينية ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤١٦ .

٣ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٤ .

٤ الدخن : نبات بري وبستاني له حب صغير أملس كحب السمسم ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٥٦ ؛ابن رسته، الأعلاق النفيسة، ص١٤١.

٥ كابل : من ثغور طخارستان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢٦ .

٦ الأهليلج : شجر له ثمر يشبه في شكله حب الصنوبر ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ١٥١ .

٧ اليعقوبي : البلدان ، ص ١٨ ، ٥٦ .

) ، فقد كان يحمل في البحر إلى الزقاق[1] فإذا قرب من بلد الأبلة ارتفعت رائحته فلا يمكن التجار أن يشتروه من العشارين[2]، فإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر[3] .

وتحدث ابن الفقيه أن مدينة شيراز اشتهرت بالماورد الجوري وقد كان يحمل منها إلى جميع البلدان[4].

اما سليمان التاجر فقد أشار إلى أن قوافل التجار المسلمين كانت تحمل من الهند النارجيل وقصب السكر والموز[5].

إن ما ذكر من معلومات يؤكد أن للقوافل التجارية دوراً بارزاً وإيجابياً وفاعلاً في تنشيط المبادلات التجارية بين دول المشرق الإسلامي والعديد من دول العالم ، وأصبحت وسيلة ناجحة في خلق التحام اقتصادي مستمر عاد على الطرفين بالرقي والنمو والازدهار ، بل شكلت هذه القوافل معرضاً متنقلاً يقوم على الدوام بعمليتي البيع والشراء ، فقد تدفقت الأموال على التجار ، وأصحاب رؤوس الأموال ، وأرباب الأعمال ، وازدهر النظام المصرفي ، وتوسعت عمليات قبول الودائع بين التجار ، وتنوعت وسائل المبادلات التجارية ، فكانت تلك القوافل التجارية نافعة لتسهيل التبادل التجاري داخل الدولة أو ربما خارجها ، والموسمية منها ، أو الدائمة إلى ازدياد التعامل التجاري .

بالتالي يمكن القول ، إن قراءة هذه المعلومات تعطي إمكانية لقراءة الواقع التاريخي للتجارة في العالم الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري من خلال التعرف على حجم التبادل التجاري ، وأنواع البضائع المتبادلة بين مناطق العالم الإسلامي ، كما توضح نوعية البضائع على

---

[1] الزقاق : بضم أوله وأخره مثل ثانيه ، وهو في الأصل طريق نافذ وغير نافذ ضيق دون السكة ، وأهل الحجاز يؤنثونه وبنو تميم يذكرونه ، والزقاق : مَجاز البحر بين طنجة ، وهي مدينة بالمغرب على البر المتصل بالإسكندرية والجزيرة الخضراء ، وهي في جزيرة الأندلس ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٤٤ .

[2] العاشر: هو آخذ الصدقات من التجار عند منافذ مرور التجارات؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٣٦٢ .

[3] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٣ .

[4] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٤ .

[5] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٨ .

مدى الرفاهية التي عاشت بها بعض المناطق الإسلامية ، وحرية الحركة التجارية وأمان الطرقات في القرن الثالث الهجري.

ت – أهم المراكز التجارية في المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري.

تطلب العمل التجاري إنشاء مراكز تجارية تقوم بتنظيم عملية سير التجارة ، فظهــرت مراكز هامة للتجارة وأصبحت العديد من المدن في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجــري المركز الإمبراطوري للتجارة العالمية ، فكانت قوافل الصين تتقابل مع قوافل فارس والعــراق ، فازدهرت التجارة وبلغت درجة كبيرة من التقدم حتى وصلت تجارة بلدان المشرق الإسلامي إلى الصين والهند وأوروبا ،بالتالي سيكون من الهام التعرف على أهم المراكز التجارية التي ذكرهــا رحالة القرن الثالث الهجري :

١ –بغداد.

كانت بغداد من أهم المراكز التجارية في المشرق الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري وقد زاد في أهميتها التجارية موقعها بين مدن العراق الهامة وفي ذلك يقول اليعقوبي :" وذكــرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعةً وكبراً"[١]، وما يؤكد تميز هذا الموقع الذي بنى فيه المنصور المدينة أنه كان عامراً منذ القدم فابن رسته يذكر أن هذه المنطقة كانت مأهولة بالسكان منذ عهد البابليين[٢] الأوائل[٣] .

لقد شغل موقعها أهمية استراتيجية كبرى لوقوعه على الخط التجاري بين شــرق الــبلاد وغربها على نهري دجلة والفرات فبفضل هذا الموقع تدفقت أنواع التجارات إلى بغداد فأشار لذلك اليعقوبي وابن رسته عندما قالا :" ثم يجري في حافتيها النهران الأعظمان دجلة والفرات فتاتيهما التجارات براً وبحراً بأيسر السعي حتى تكامل بها كل متجر يحمل من المشرق والمغــرب مــن

---

[١] اليعقوبي: البلدان ، ص ٢ ،٣ .

[٢] البابليين: هم من القبائل الآمورية الجزرية التي دخلت بلاد الرافدين من القسم الشمالي الغربي من (الجزيرة الفراتية)، وسيطرت هذه القبائل على غالبية البلاد وشكلت فيها الكثير من السلالات والممالك التي توحدت تحت زعامة سلالة بابل الأولى ، وذلك في الألفية الثانية قبل الميلاد؛ المدور (جميل نخلة) : تاريخ بابل وآشور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٢م، ص ٤١ ،٤٢ ؛ الحموي: معجم البلدان، ج ١ ، ص ٣١٠ .

[٣] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٨ .

أرض الإسلام وغير أرض الإسلام "[١]، وعلى هذا فقد كانت أغلب البلدان ترسل بضائعها إليها كالهند والسند والديلم والترك والحبشة ، في ذلك قال اليعقوبي :" ..... حتى يكون بها من تجارات البلدان أكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها"[٢].

إن قراءة ما ورد في أعمال رحالة القرن الثالث الهجري تدل على مدى ازدهار بغداد كمركز تجاري كبير في تلك الفترة.

٢-سامراء.

أصبحت سامراء واحدة من المدن الإسلامية التي شهدت رواجاً تجارياً من خلال موقعها المتميز الذي نجح المعتصم بالله في اختياره ، إضافة إلى وجود مختلف الأسواق التي أقامها وشجعت على حركة التبادل التجاري الداخلي ، فقد حرص أن يجعل من حاضرته مقراً للتجار وتجارتهم ، وقد ذكر اليعقوبي أن التخطيط العمراني الذي سارت عليه أسواق سامراء قريب الشبه بأسواق بغداد[٣] .

نشطت الحركة التجارية في سامراء فقد أصبح للمدينة علاقات تجارية مع مختلف الأقاليم والبلدان فكان لوجود الفرض[٤] عاملاً كبيراً في زيادة رواج حركة التجارة الداخلية بين سامراء والمدن الجنوبية مثل بغداد وواسط وسائر مدن السواد ، كذلك ساهمت سامراء بنشاط ملحوظ في حجم التجارة الخارجية فقد ازداد حجم التبادل التجاري بينها وبين بعض المدن الساحلية الشامية مثل أنطاكيا ومصر والجزيرة وخراسان[٥] .

٣-البصرة.

كانت مدينة البصرة من المدن العراقية المهمة التي احتلت مركزاً تجارياً هاماً بالنسبة للتجارة الداخلية والخارجية بفضل موقعها عند التقاء دجلة بالخليج العربي على رأسه .

---

١ اليعقوبي : البلدان ، ص ٣ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٨ .

٢ اليعقوبي: البلدان، ص ٣ .

٣ اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥ .

٤ الفرض : محط السفن في البحر ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٥٩٨ .

٥ اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٠ .

يقول اليعقوبي :" البصرة كانت مدينة الدنيا ومعدن تجاراتها وأموالها"[١].

وقد كانت البصرة ملاذاً أمناً ومستقراً للعاملين من الفقراء والغرباء في التجارة ، حيث كان يأتيها الناس من كل حدب وصوب للعمل فيها لكثرة خيراتها ورواج منتجاتها ، وقد قال في ذلك ابن الفقيه: " .... دخل فتى إلى مدينة البصرة فلما انصرف قالوا كيف رأيت البصرة ، قال : خير بلاد الله للجائع والغريب[٢] والمفلس[٣]".

٤-سمرقند .

كانت سمرقند من أشهر مراكز التجارة في بلاد ما وراء النهر ، وقد تميزت بتجارة خاصة منحتها ميزة عن بقية المدن لكونها مصدر (صناعة وتصدير الورق)[٤] حسب ما ذكره ابن الفقيه، التي انتقلت صناعته منها إلى أقاليم الدولة العربية الإسلامية وأوروبا ، فقد كان ينبت فيها شجر الكاغد الذي يصنع من لبه الورق ، وكان الناس يكتبون قبل ذلك على الرق[٥] واللخاف[٦]، ثم أمر الخليفة هارون الرشيد بعد أن كثر الورق ، ألا يكتب الناس إلا في الكاغد .

٥-الري.

تعد مدينة الري المركز التجاري الكبير للتجارات القادمة من العراق وأرمينية وأذربيجان وخراسان ، ويصفها ابن الفقيه بأنها باب التجار فكثرت بها الأسواق وخانات التجار ، وقصدها جماعات من نجار العرب والأتراك[٧].

الحقيقة أن الرحالة لم يغفلوا مدينة من مدن المشرق الإسلامي التجارية إلا وذكروا كل ما بها من منتجات وسلع لإظهار أهميتها سواء للتجارة الداخلية أو الخارجية ، ولكن اقتصرت على ذكر بعض تلك المدن التي كان لها أثراً كبيراً على النشاط التجاري خلال القرن الثالث الهجري وذلك تجنباً لتكرار المعلومات.

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ٨٥ .

[٢] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٠ .

[٣] المفلس : أي الفقير ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٥٥٢ .

[٤] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥١ .

[٥] الرق : الجلد الرقيق الذي يكتب عليه ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٩٩ .

[٦] اللخاف : حجارة بيض رقاق ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٦٨٧ .

[٧] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٠ .

إن قراءة أعمال الرحالة تبين إلى أي مدى لعبت التجارة دوراً في ازدهار بعض المدن في القرن الثالث الهجري ، وأن الرحالة لم يغفلوا عن التنويه إلى ميزات بعض المـــدن التجاريـــة ، وعليه ، يمكن استخلاص الازدهار التجاري للعالم الإسلامي من خلال كتب الرحلة أكثر من كتب التاريخ التقليدية .

ث- الأسواق.

تعد الأسواق ضرورة حياتية مهمة لسكان أي مدينة ، وتطلق كلمة السوق على كل مكان يتم فيه البيع والشراء بين الناس في الأماكن التي تتجمع فيها الحوانيت والمتاجر ويكثر فيها الباعة والتجار وأصحاب الحرف ، وتمثل الأسواق مراكز للنشاط التجاري ، وقد جاءت لفظة السوق في القرآن الكريم في آيات عدة قال تعالى :﴿ وقالوا مال هذا الرسول يأكـــل الطعـــام ويمشـــي فـــي الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ﴾[١] ، وقال تعالى: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكـــان ربـــك بصيرا ﴾[٢] .

نظراً لأهمية التجارة فقد وردت أحاديث تشير عن الأسواق والاشتغال فيهـــا لأن تســـعة أعشار الرزق من التجارة ، قال رسول الله (ﷺ) في مخاطبة لرجل :((عليـــك بلـــزوم الســـوق والصنعة ، فقل ولا تزال كريماً على إخوانك ما لم تجنح إليهم))[٣].

يلاحظ أن رحالة القرن الثالث الهجري تطرقوا إلى الأسواق في إقليم العراق فقط، أما بقية أقاليم المشرق الإسلامي لم يتم الحديث عنها، وربما يعود ذلك أنه لما كـــان للعـــراق وخاصـــة(بغداد)، من أهمية كبرى فهي أم المدن ومعدن التجار والتجارة ، وكما هو ثابت أنها أهم مركـــز تجاري في الدولة العباسية. ويشير اليعقوبي إلى نوعين من الأسواق في بغداد، أســـواق عاديـــة صغيرة في كل محلة وسكة ، وهناك أسواق جامعة ، فيها كل التجارات، وقد أورد اليعقوبي بعض أسماء الأسواق في بغداد وحولها من الضواحي وهي :

---

[١] القرآن الكريم : سورة الفرقان ، الآية ٧١ .

[٢] القرآن الكريم : سورة الفرقان ، الآية ٢٠ .

[٣] البخاري (محمد بن إسماعيل ت: ٢٥٦هـــ / ٨٦٩م) : صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.م ، د.ت ، ص ١٤٠ .

١- سوق باب المحول[١] : وفيه سوق عظيمة فيها أصناف التجارات .

٢- سوق نخاسي الدواب : وتقع بين الكناسة ومنازل الفرس المعروفين باسم أصحاب الشاه .

٣- سوق الدباغين : ويقع على نهر عيسى بن علي[٢] الذي ينبع من الفرات مقابل قطيعة الروميين.

٤- سويقة أبي الورد[٣] : وفيها سوق تباع فيها سائر البياعات قرب باب الكرخ .

٥- سوق القنطرة الجديدة: وتقع على ضفاف نهر دجلة من جهة الكرخ، وصف سوقها (سوق كبير فيها سائر التجارات مادة متصلة) .

٦- أسواق شارع باب الكرخ : وتقع على جانبي الطريق إليه ومنها سوق النخاسين ، وفيها تجارة البزازين[٤] وقال اليعقوبي فيها :((وأصناف ما يحمل من خراسان من الثياب لا يختلط بها شيء)).

٧- أسواق الدجاج : وتقع على نهر يقال له نهر الدجاج .

٨- سوق الوراقين : أصحاب الكتب وفيه أكثر من مائة حانوت للوراقين .

٩- سوق الكرخ العظمة : وصفها اليعقوبي بقوله :" مادة من قصر وضاح[٥] إلى سوق الثلاثاء[٦] ، طولاً بمقدار فرسخين ومن قطيعة الربيع إلى دجلة عرضاً مقدار فرسخ ، فلكل تجار وتجارة شوارع معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراص[٧]، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يباع صنف مع غير صنفه ولا يختلط

---

١ باب المحول : يقع بشارع باب المحول الذي هو الشارع الرئيسي لبغداد ؛ اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢ .

٢ نهر عيسى بن علي: نهر حفره عيسى بن علي عم المنصور ونسب إليه؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج٧، ص ٤٠٩ .

٣ أبي الورد : هو عيسى من موالي المنصور العباسي ؛ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي ت : ٥٩٧هـ /١٢٠٠م) : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، تح : محمد عطا ومصطفى عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م ، ج١٢ ، ص ١٨٦ .

٤ البزازيين : هم بائعي الثياب ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ١٧١ .

٥ قصر وضاح: منسوب إلى وضاح الشروي مولى المنصور العباسي؛ البغدادي : تاريخ مدينة السلام، ج ١، ص ٤٠٣ .

٦ سوق الثلاثاء: ببغداد، سمي بذلك لأنه كان يقوم عليه سوق أهل بغداد قبل أن يعمر المنصور بغداد في كل شهر مرة يوم الثلاثاء ، فنسب إلى اليوم الذي كانت تقوم فيه السوق ؛ الحموي : معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨٣ .

٧ عراص : هو بقعة واسعة من الدور ليس فيها بناء ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٥٤٦ .

أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم ، وكل سوق مفردة وكل أهل منفردون بتجاراتهم وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم ".

١٠- سوق شهارسوج الهيثم : وهو سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك تنسب إلى شار سوق الهيثم .

١١- سوق الشام : وهي أسواق كبيرة واسعة تضم جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال آهلة عامرة الشوارع والدروب والعراص وتمتد في شارع عظيم فيه دروب أسواق واسعة[١] .

١٢-سوق العطش[٢] : وهي السوق العظمى الواسعة .

١٣- سوق خضير : وهو معدن طرائف الصين ، احتوى سلعاً ثمينة ونادرة مثل فرو النمر والثعالب والعنبر والجلود والسهام[٣].

أما عن مدينة سامراء التي تأتي في المرتبة الثانية في الأهمية بعد بغداد، فقد ذكر اليعقوبي أن التخطيط العمراني الذي سارت عليه أسواقها قريب الشبه بأسواق بغداد، فبعد أن أختط المعتصم بالله القصور والقطائع، أختط المسجد الجامع ومن حوله الأسواق التي اتسعت صفوفها فشملت تجارات مختلفة انفرد صاحب كل تجارة بمكان معين ، وكان لسياسة المعتصم بالله مع حاشيته والمقربين إليه بمنحهم كثير من الإقطاعات التي انتشرت بها الأسواق والحوانيت مما ساعد على ازدهار التبادل التجاري، فقد أقطع المعتصم بالله القائد التركي أشناس الكرخ وأمره أن يقوم ببناء المساجد والأسواق، وأن لا يسمح للتجار وغيرهم ممن لا ينتموا إلى الأتراك بمجاورتهم ، مما يعني سيطرة التجار الأتراك على سوق الكرخ، وقد أمر بإنشاء سويقة في كل موضع يضم عدة حوانيت يباع فيها السلع التي لا غنى عنها في الحياة اليومية مثل البقوليات واللحوم وغيرها من السلع ، ومن أشهر أسواق سامراء :

١- السوق العظمى : قال اليعقوبي فيها :" لا تختلط بها المنازل كل تجارة منفردة وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم " .

---

١ اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢ ،١٦ .

٢ سوق العطش : بناه سعيد الخرسي للمهدي ، وحول إليه كل ضرب من التجار فشبه بالكرخ وسماه سوق الري فغلب عليه سوق العطش ؛ البغدادي : تاريخ مدينة السلام ، ج١ ، ص ٩٣ .

٣ اليعقوبي : البلدان ، ص ١٦ – ٢١ .

٢- سوق الرقيق : تقع في مربعة[1] فيها طرق مشعبة فيها الحجر والغرف والحوانيت للرقيق.

٣- أسواق أصحاب البياعات الدنية مثل أصحاب الفقاع[2] والهـرائس[3] والشـراب ، تقـع بالقرب من المسجد الجامع[4] .

أما عن أسواق مدينة الجعفرية التي بناها المتوكل في العراق ، فقد ذكر اليعقوبي أن أسواقها في موضع معتزل وجعل المتوكل في كل مربعة وناحية سوقاً[5].

أشار ابن الفقيه أن في مدينة البصرة سوقاً شهيراً يدعى (المربد) ، الذي كان في العصر الأموي يجتمع فيه العرب للبيع والشراء ويتناشدون فيه الأشعار ، وقد استمر المربد في العصـر العباسي وصار محلة عظيمة سكنها الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء[6] .

من خلال العرض السابق يلاحظ أن اليعقوبي هو الرحالة الوحيد الذي تحدث عن الأسواق في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، في العراق عامة وبغداد خاصة، كـون بغـداد كانت موطن ولادته ، فحاول ربما من هذه المعلومات أن يتحدث عن كل ما هو مميز فـي هـذه المدينة الذي أعلن عن تعلقه وحبه لها واعتبرها مركز العالم ،ويضاف إلـى ذلـك لسـعة أفـق اليعقوبي من خلال كثرة أسفاره التي أضافت إليه ثقافات أثرت عقليته العلمية وأهلته أن يؤلف في ميدان التاريخ والجغرافية ، وينفرد بذكر تفاصيل مهمة خاصة بالجوانب الاقتصـادية ، وربمـا تجاهل باقي الرحالة مسألة الأسواق كونهم اعتبروا وجودها أمراً مألوفاً ولا يقدم أي جديـد إلـى مؤلفاتهم.

---

[1] المربعة : هو مكان نزول وإقامة الحي ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٥٢٦ .

[2] الفقاع : لم يتم العثور على ترجمة لهذه الكلمة .

[3] الهريسة : طعام يصنع من خليط القمح واللحم ، والهريسة أيضاً نوع من الحلوى ؛ عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٦١١ .

[4] اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٤ – ٢٨ .

[5] اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٣

[6] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٣ ؛ سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٢٠٤ .

ث- الخانات .

يعد الخان من الأبنية المهمة بالنسبة إلى المدينة أو المنطقة التي يقام فيها من النـاحيتين الاقتصادية والتجارية ، فالخان بمفهومه البسيط المبنى الذي يدل على المتجـر ومكـان التجـارة ومزاولي أعمال البيع والشراء ومحل أقامتهم وتجارتهم كما استخدمت كذلك للدلالة علـى محـط ومنزل المسافرين والقوافل التجارية ، إضافة إلى كونها نقطة من نقاط الحراسة والمحافظة علـى الأمن في الطرق التي تسلكها تلك القوافل .

لذلك كله نجد أن هذا النوع من الأبنية قد نال قسطاً كبيراً من الاهتمـام والرعايـة منـذ العصر الإسلامي الأول ، وكان من العوامل المساعدة على ازدهار التجارة في العالم الإسلامي ، إذ أدرك المسلمون منذ وقت مبكر أهمية التجارة لتحقيق الرخاء في بلادهم لذلك عملـوا علـى تيسير السبل أمام التجار والمسافرين وأمنوا لهم الطرق وأقاموا لهم منشآت على امتدادها ليجـدوا فيها راحتهم وتأويهم ودوابهم، فواكبت الخانات حركة التجارة الداخلية والخارجيـة ، وأصـبحت أهمية المدن تقاس بعدد الخانات الموجودة فيها .

تجدر الإشارة إلى أن رحالة القرن الثالث الهجري ربما لم يعتمدوا على الخانات كأمـاكن للمبيت لهم ، وذلك لأنه كان بإمكانهم قضاء أوقاتهم عند حاكم المدينة وذلك لأن الرحالة يعـدون من المقربين من السلطات وبالتالي هم موظفي دولة . رغم ذلك لم تخلوا مؤلفاتهم من إشارات إلى أسماء العديد من الخانات في بلدان المشرق الإسلامي ، وأهمها : خان النجائب ، خان جـوزان ، خان الأبرار ، خان حمَّاد ، خان وردان ، خان أبي زياد[١] .

يلاحظ من ذلك أن الخانات حملت أسماء متعددة ومتنوعة ، بعضها يعود إلى صاحب هذا الخان مثل : خان وردان ، خان أبي زياد ...... ، أو نسبة إلى المكان الذي يقع فيه الخـان ، أو نسبة إلى التجار الذين خصصت لهم هذه الخانات .

وقد قال شاعراً في خانات بغداد حسب ما ذكر ابن الفقيه:

يا من يأم إلى بغداد مجتهداً

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٤٩ ، ٥٨ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٨٩ ؛ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني ت : ٢٩٠هـ / ٩٠٣م) : بغداد مدينة السلام ، تح : صالح العلي، وزارة الأعلام العراقية ، بغداد ، ط١ ، ١٩٧٧م ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

أرح مطيك[1] بين الحبس والخان[2].

تماشياً مع ما تم ذكره يمكن القول أن الخانات ضرورة ملحة لمواصلة السير والتنقل من مكان لآخر ، ولولاها لتعذر على المسافرين قطع المسافات النائية ، وأقلق راحتهم .

إن ما ذكر من معلومات كان له بعد ثنائي فمن ناحية قدم لقارئ القرن الثالث الهجري معلومات مهمة على الخارطة التجارية للعالم الإسلامي خلال تلك الفترة من خلال التعرف على مختلف الطرق التجارية والقوافل التجارية وعلى أهم المراكز التجارية ، كما عرفته على الأسواق وما تشتهر به وعلى الخانات ، ومن ناحية ثانية أفادت قارئ اليوم فيستطيع من خلال قراءة ما ورد من معلومات أن يكون فكرة عن التاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي بالقرن الثالث الهجري ، هذا الجانب من التاريخ الهام بقي مهملاً في كتب التاريخ التقليدية .

ثالثاً – الصناعة.

لقد كان للصناعة في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، حظ كبير من عناية الخلفاء والسلاطين والأمراء الذين اهتموا باستخدام موارد الثروة على اختلافها ، ويأتي الاهتمام بالصناعة من خلال الآيات القرآنية التي بينت نظرة الإسلام إلى العمل ، وأنها نظرة إيجابية ، حيث وردت العديد من الآيات القرآنية التي تتحدث عن العمل ، منها قوله تعالى في مدح سيدنا داود (عليه السلام) : ﴿ ففهمناها سليمان وكلا ءاتينا حكما وعلما وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين۝ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾[3]، ومن هذا المنطلق سنحاول تسليط الضوء على واقع الصناعة في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من خلال مؤلفات الرحالة .

أ-الصناعات النسيجية.

تعد حرفة النسيج من أهم وأقدم الحرف والصناعات لما لها من أهمية كبيرة في الحياة اليومية وما يحتاجه الناس من الألبسة والأغطية والفرش ، وقد شهدت فترة العصور الإسلامية

---

[1] المطية : الدابة التي تركب ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٤٩ .

[2] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٥٨

[3] القرآن الكريم : سورة الأنبياء ، الآية ٧٩ ، ٨٠ .

وبشكل خاص (العصر العباسي) ، حركة رواج في صناعة تلك الألبسة والأنسجة واشـــتهرت معظم المدن الإسلامية في إنتاج أنواع مختلفة من الألبسة والأنسجة .

لقد أشار اليعقوبي إلى ازدهار الصناعات اليدوية في مختلف أنحاء الدولة العباسية حيث كانت بغداد مركز هذه الصناعات في الدولة وعمل فيها كل ما يعمل في بلد من البلدان لأن حذاق أهل الصناعات انتقلوا إليها من كل بلد وأتوها من كل أفق[١]، وقد اشتهرت بغداد والعديد من مدن المشرق بالنسيج الفريد والراقي، والثياب الفخمة ، يقول ابن الفقيه في ذلـــك : " ولهـــم الـــذي لا يشركهم فيه أحد الثياب البيض المروية[٢] والعتابية[٣] والمُنيَّرة[٤] وأشياء كثيرة من أنـــواع ثيـــاب القطن والصوف والكتان"[٥] . كما نوه ابن الفقيه أن للكوفيين مهارة خاصة في صنع الوشـــي[٦] والخز[٧]، ويضيف قائلاً: "...ولأهل كورة دجلة والسواد وميسان[٨] من عمـــل الســـتور والبســـط والحرير والدرانك والدورنك[٩] وغير ذلك من أنواع الفرش والبسط ما ليس لأحد"[١٠].

وذكر ابن رسته أن مدينة الحيرة[١١] تنسج الحرير والأقمشة القطنية والصوفية وبها تتخذ الطنافس الحيرية [١٢] التي ينسج فيها صور الفيلة والخيل والجمال والطيور[١٣] .

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٩ .

[٢] المروية : ضرب من الثياب الجيدة المنسوبة إلى مدينة مرو بفارس ؛ إبراهيم (رجب عبد الجواد) : المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٢م ، ص ٤٦٦ .

[٣] العتابية : صنف من قماش خشن يتخذ من الحرير والقطن ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٣١٩ .

[٤] المُنيَّرة : أي منسوجة على نيرين ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٧٦ .

[٥] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٢ .

[٦] الوشي : الثوب المحسن بالألوان والمنقش ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٨٦٣ .

[٧] الخز : هو ما ينسج من حرير خالص ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٣٣ .

[٨] ميسان: كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان؛ الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٢٤٢ .

[٩] الدرانك والدورنك : نوع من أنواع البسط والفرش ؛ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٣ .

[١٠] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ .

[١١] الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة على موضع يقال له النجف؛ الحموي: معجم البلدان، ج٢ ، ص٣٢٨ .

[١٢] الطنافس : قيل الطنافس للبسط والثياب والحصير من سعف عرضه ذراع ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٣٠٩ .

[١٣] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٨٦ .

ذكر ابن الفقيه واليعقوبي أن بلاد فارس عرفت بمعاملها النسيجية ولا سيما قومس الـــذين كانوا من الحذاق في صناعة النسيج ، يضاف إلى ذلك طبرستان التي اشتهرت بالفرش الطبــري والأكسية الطبرية ، ثم إلى جرجان المعروفة بأصناف الثياب الحريرية ، ويوضح ابن الفقيه هنـــا قائلاً :((ولأهل جرجان من الإبرسيم (الحرير) ، ما ليس عند غيرهم ومنها يحمل إلى جميـــع البلدان ولهم حذق باتخاذ الديباج والمقانع[١] والثياب والستور))[٢].

كما اشتهرت مدينة طوس بعمل الفراء وسائر الوبر والسمور والفنك[٣] والقاقم[٤] والوشق[٥].

وذكر ابن رسته أن مدينة أصبهان اشتهرت بعمل البسط التـــي لا ترتفـــع عـــن فرشـــها واستعملها الرؤساء والآجلة ولا تستكثر للأوساط والسوقة، ((مشهور في الآفاق حســـنها وجـــودة صنعتها وبقائها وإن استعملت مع الأرمني الفاخر من الفرش حسنت معه وإن بســـطت وحـــدها اجتزى بها وكان يعمل به الستور المرتفعة التي تفوق الموصلية[٦] والواسطية[٧] حســـناً وجـــودة وبقاء))[٨].

علاوة عن ذلك عدت صناعة النسيج من أهم الصناعات التي راجت وازدهرت في بـــلاد الهند حيث بلغت درجة عالية من الجودة والإتقان، وأهمها صناعة الأقمشة القطنيـــة والصـــوفية والحريرية ، بحيث أصبحت صناعة الاقمشة القطنية الهندية أكثر دقة وحسناً وشهد بذلك ســـليمان التاجر فقال :"وفيها الثياب التي ليست لأحد مثلها يدخل الثوب بها منها في حلقة خاتم دقة وحســـناً هو قطن وقد رأينا بعضها "[٩].

---

[١] المقانع : مفردها مقنع ، وهو ما تستر المرأة بها رأسها وتغطيه ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٦٢ .
[٢] اليعقوبي : البلدان ، ص ٤٣ ، ٤٤ ؛ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٤ .
[٣] الفنك: حيوان غزير الشعر يستخدم جلده كفراء ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٣٦٣ .
[٤] القاقم: حيوان على شكل فأرة إلا أنه أطول منها تصنع من جلوده الفراء؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص٦١٦.
[٥] الوشق : دابة تتخذ منها الفراء الجيدة ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٥٢٨ ،اليعقوبي: البلدان ، ص٤٤.
[٦] الموصلية : نسبة إلى مدينة في العراق ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٢٢٣ .
[٧] الواسطية : نسبة إلى مدينة واسط في العراق ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٥ ، ص ٣٤٧ .
[٨] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٣ .
[٩] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٤٧ .

إن قراءة هذه المعلومات تعطي إمكانية لقراءة الواقع الصناعي للعالم الإسلامي خلال القرن الثالث الهجري ، من خلال التعرف على أهم المنسوجات واستخداماتها ، وأنواعها ، كما توضح لنا نوعية تلك المنسوجات على مدى الرفاهية والترف التي عاشت بها بعض المناطق الإسلامية.

ب- الصناعات المعدنية.

تعد المعادن بمختلف أنواعها، مصدراً هاماً من مصادر الاقتصاد، وقد انتشرت عملية التعدين واستخراج المعادن في أنحاء المشرق الإسلامي، وكان من العوامل المشجعة على قيام الصناعات المعدنية في المشرق وجود الثروات المعدنية في أقاليمها مثل: الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها، فظهرت صناعة السيوف والدروع، وصناعة الأواني والتحف والحلي، فضلاً عن صناعة النقود ، وقد لاقت دراسة المعادن وطرق استخراجها اهتماماً من قبل رحالة القرن الثالث الهجري ، لذلك فقد توفرت لدينا العديد من المصادر الهامة التي تناولت دراسة أسماء المعادن وصفاتها وطرق استخراجها واستخداماتها، وسنتناول هنا دراسة أهم تلك المعادن الموجودة في بلدان المشرق الإسلامي من خلال مؤلفات الرحالة في القرن الثالث الهجري مبتدئين أولاً بـــ:

١-الذهب.

يعد الذهب أول المعادن الثمينة والمعروف بكثرته في معظم الأقاليم لا سيما إقليم ما وراء النهر ، ولا تكاد تخلو منه أغلب الأقاليم الجبلية ، إذ يوجد الذهب في سمرقند فقد أشار اليعقوبي أنه يوجد فيها واد عظيم فيه سبائك ذهب[١]، وذكر ابن الفقيه أن بكرمان مدينة يقال لها دمندان وهي مدينة كبيرة واسعة بها أكثر معادن الذهب الذي عرف بجودته ونقاوته وصفائه[٢] ، وأشار ابن رسته أن في نهر جيحون موضع يخرج منه الذهب قطع صغار مثل رؤوس الأبر[٣] ، كما ذكر ابن خرداذبة أن ببلخ أجود الذهب وأحمره وأصفا[٤] .

---

١ اليعقوبي : البلدان ، ص ٥٩ .

٢ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٦ .

٣ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ٩٣ .

٤ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٧٩ .

كما اشتهرت بلاد الهند بكثرة الذهب فيها ، إذ أشار سليمان التاجر[١] وابن خرداذبة[٢] وابن الفقيه[٣] إلى أن أهل الهند كانوا يتحلون بإسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء .

أما طرق استخراج الذهب ، فكما ذكرنا مسبقاً أنه يوجد في أغلب المناطق الجبلية في أقاليم ما وراء النهر ، فيتم استخراجه من الأودية الجبلية بعد أن تجرفه الأمطار والسيول وهناك طرق عدة في استخراج الذهب وجمعه وأهم هذه الطرق ذكرها ابن خرداذبة ، ومفادها استخدام مسوك[٤] المعز ، وانتشرت هذه الطريقة في ناحية (ويشجرد)، عند أحد روافد نهر جيحون والمسمى (نهر باخشوا)، "حيث يخرج أهلها من باخشوا حتى ينزلوا على شط جيحون ويمدون على شط النهر مسوك المعز الشعر إلى أعلاه ويشدون ويستوثقون منا بالأوتاد حواليها فينزل أحدهم في النهر على الشط فينضح الماء على تلك المسوك والآخر يمسح الماء من المسوك ، والماء كدر ثقيل فإذا عرفوا أن أصول شعر المسك قد امتلأت من الرمل والذهب أخذوه وبسطوه على وجه الأرض في عين الشمس حتى إذا جف أخذوها ولهم أنطاع[٥] مفروشة فنفضوها هناك وأخذوا منها الذهب"[٦].

يبدو لنا أن الذهب معدناً هاماً لسكان المشرق الإسلامي ، حيث يدخل في صناعة الحلي للزينة و الأواني الفاخرة والملابس المطرزة بخيوطه الذهبية ، فضلاً عن صناعة سك النقود وغيرها ، كما أن طرق استخراجه تعتبر معقدة بعض الشيء بالرغم من توفره بكثرة في بعض مناطقهم .

---

١ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٩ .

٢ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٦ .

٣ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٥ .

٤ المَسْك : هو جلد حيوان يتخذ منه الأكياس التي توضع فيها الأموال والحلي ؛عمارة : قاموس المصطلحات الاقتصادية ، ص ٢٣٥ .

٥ الأنطاع : لم يتم العثور على ترجمة خاصة بهذه الكلمة ، ربما يكون الأنطاع ستور مفروشة على الأرض؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٧٩ .

٦ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٧٩ .

٢-**الفضة.**

عرفت الفضة بكثرة وجودها في أقاليم خراسان وما وراء النهر ، فقد كثر معدن الفضة في مدينة إيلاق[١] التي احتوت جبالها على معدنه فذكر ابن خرداذبة أنها ومدينة بلانكنك[٢] فيهما معدن الفضة[٣]، ويذكر ابن رسته في أثناء حديثه عن مدينة أصبهان أنه كان يوجد بها معدن الفضة إلا أنها في هذا الوقت مهجورة لا يعمل فيها وآثار العمل الذي كان يعمل فيها قائمة من آبار محفورة كان يستخرج منها الفضة ومعادن ظاهرة[٤].

كما أشار ابن الفقيه إلى كثرة معدن الفضة في قرى كرما[٥]، وقد استخدم هذا المعدن في صناعة الحلي و الأواني الفاخرة وسك النقود.

٣-**النحاس.**

يبدو أن المعلومات عن النحاس قليلة بعض الشيء في مؤلفات الرحالة، ربما كونه لم يكن بنفس أهمية الذهب والفضة، فلم يتحدثوا عنه سوى بعض الإشارات، إنه متوفر في جبال بلخ ومدينة دمندان[٦]، وأشار ابن رسته أن في مدينة اصبهان معدن النحاس وعليه للسلطان خراج عشرة آلاف درهم[٧]، أما عن استخداماته فقد استخدم في صنع الأواني النحاسية، فضلاً عن استخدامه في سك النقود .

٤-**الحديد.**

يعد الحديد من أشد المعادن قوة وأثقلها وزناً ، ويتوفر هذا المعدن في أقاليم ما وراء النهر ، وقد تنوعت استخداماته في صنع الأبواب والأقفال والدروع وغيرها، ويذكر ابن الفقيه:"أن لفارس فضل في اتخاذ الآلات الظريفة المحكمة من الحديد حتى قال بعض الحكماء لما وقف على أشياء ظريفة عند بعض الملوك من الآت فارس لقد الآن الله عز وجل ، لهؤلاء القوم الحديد وسخره لهم

---

١ إيلاق : مدينة من بلاد الشاش المتصلة ببلاد الترك ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٩١ .

٢ بلانكنك: مدينة من بلاد الشاش متاخمة لبلاد ما وراء النهر ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٢٧ .

٣ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٢٧ .

٤ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٦ .

٥ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٦ .

٦ اليعقوبي : البلدان ، ص ٥٥ ؛ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٦ .

٧ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٦.

حتى عملوا منه ما أرادوا فهم أحذق الأمة بالجوامع[1] والأقفال والمراية وتطبيع السيوف والدروع والجواشن(٢) (٣)".

تجدر الإشارة إلى أن وفرة الحديد في أقاليم ما وراء النهر، دفع سكانها إلى اعتبار صفائحه من المواد الداخلة ضمن الضرائب السنوية (الخراج)، للدولة والبالغة حوال (١٣٠٠) لوحة من الحديد كما يتضح ذلك من قوائم الخراج في العصر العباسي التي أعدها ابن خرداذبة(٤).

يبدو أن فترة العصر العباسي كان الإقبال فيها على الحديد كبير جداً أكثر من العصر الأموي ، فربما يعود ذلك إلى اكتشاف الكثير من مناجم الحديد في هذه الفترة، أو ربما يعود ذلك إلى أسباب عسكرية بحتة .

بالتالي يمكن القول أن الرحالة ساهموا في توضيح أماكن توزع الثروات المعدنية في المشرق الإسلامي، حيث كانوا سبباً في اكتشاف ثروات هامة يكتنفها الغموض ، فأخذ الرحالة على عاتقهم إزالة اللثام عن أماكن تواجد هذه الثروات، حيث ساهمت معلوماتهم الفذة على ازدهار الصناعات المعدنية في المشرق الإسلامي .

ت- الصناعات الغذائية.

يعد الغذاء المادة الرئيسية التي يعيش عليها الناس في كل بقاع الأرض المعمورة ، ولولا وجوده لم يصمد الإنسان، وسينتهي ومن أجل ذلك فقد صنع الإنسان العديد من الصناعات الغذائية ،ومن أهم الصناعات الغذائية التي أشار إليها الرحالة:

١-صناعة الدقيق.

يعد الخبز المستخرج من القمح أو الشعير أو الذرة أو سائر الحبوب ، في مقدمة الحاجات الأولية الغذائية للفرد ، وعملية استخراجه يتطلب توفر الآت خاصة تقوم بهذه العملية والمقصود بها الطواحين ، والتي كانت تعرف بالأرحية ، وقد كانت تلك الأرحية تستخدم عند

---

[1] ابن الجامع : طوق أو قيد من حديد يشد اليدين إلى العنق ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٢٦٦.

[2] الجوشن : هو الدرع ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٢٨٦ .

[3] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٤ .

[4] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣٩ .

مداخل الأنهار وذلك لاستخدام الماء في إدارة دولابها ، وقد أشار اليعقوبي إلى كثرة الأرحية في بغداد إذ كان يفرض عليها ضرائب إلى جانب الأسواق ودور الضرب ، حيث وصل مقدارها جميعاً إلى اثني عشر ألف ألف درهم[١]، وذكر ابن الفقيه أن لبلاد فارس وخاصة (مرو) ، ضروب من الخبز حيث أقام فيها أشهر الخبازين المهرة[٢] .

٢-صناعة السكر.

يعد السكر مادة غذائية هامة في معظم البلدان ، وتعد صناعته من أهم مقتنيات الصناعة ، لا سيما خلال فترة العصر العباسي وهي من الصناعات الأولى التي اشتهرت بها العديد من مدن الهند ، فكان يصنع من مادته قصب السكر ، وكان بكثرة في العديد من الجزر الهندية وفي بعض مناطق بلا فارس[٣] .

٣-صناعة التوابل.

تعد التوابل من أهم السلع التي اشتهرت بلاد الهند بصناعتها ، وأبرزها (الفلفل) ، حتى أن سليمان التاجر أسماها ببلاد الفلفل[٤] ، وقد أشار ابن خرداذبة أن البحريون ذكروا أن على كل عنقود من عناقيد الفلفل ورقة تكنه من المطر فإذا انقطع المطر ارتفعت الورقة وإذا عاد المطر عادت[٥].

وتدخل القاقلة[٦] والقرنفل ضمن عناصر التوابل أيضاً ولهما استخدامات متعددة منها ما لها علاقة بغذاء الإنسان ، وقد وصف اليعقوبي القرنفل قائلاً: " القرنفل كله جنس واحد وأفضله وأجوده الزهر اليابس الجاف الذكي الحريف الطعم الحلو الرائحة "[٧].

إن قراءة ما ورد في أعمال رحالة القرن الثالث الهجري تدل على مدى ازدهار بلدان المشرق الإسلامي كمركز صناعي كبير في تلك الفترة .

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٢ .

[٢] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦٢ .

[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٦ ؛ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٣ .

[٤] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٦ .

[٥] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

[٦] القاقلة : نبات هندي عطري الرائحة ويعرف بـــ (الهال) ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٦١٦ .

[٧] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٨ .

ث- صناعة المواد العطرية والمطيبات.

عرف الإنسان العطر واستعان به واحتل مكانة هامة في حياته منذ الحضـــارات القديمـــة وهذا راجع للبهجة التي يتركها في النفوس وذلك بفضل روائحه المتعددة وتراكيبه المختلفة ، وقد وردت لنا في القرآن الكريم العديد من الآيات القرآنية أشارت إلى بعض الأسماء التي تدل علـــى العطر كالمسك والريحان وغيرها ، قال تعالى: ﴿ وختامه مسك﴾[١] ، ويقول تعالى :﴿ والحب ذو العصف والريحان﴾[٢].

لقد عرف الرسول (ﷺ) بطيب ريحه ، والريح الطيبة صفته وإن لم يمس طيباً ، ومع هذا كان يستعمل الطيب في كثير من الأوقات لملاقاة الملائكة ، وأخذ الوحي ومجالسة المسلمين ، قال (صلى الله عليه وسلم) ((والمسك أطيب الطيب))[٣] ، وسنحاول هنا الحديث عن أنواع العطـــور والمطيبـــات وطرق صنعها في المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري في مؤلفات الرحالة .

١ -المسك.

قال اليعقوبي أن للمسك أصناف كثيرة وأجناس مختلفة وأفضلها وأرفعها التبتي[٤] ويؤتى به من موضع يقال له (ذوسميت) ، بينه وبين التبت مسيرة شهرين فيصار به إلى التبـــت ثـــم يحمل إلى خراسان، وأشار اليعقوبي إلى طريقة جمع المسك قائلاً: " يبتني الجلابون[٥]بناء يشـــبه المنار[٦] في طول عظم الذراع فتأتي هذه البهيمة التي من سررها يتكون المسك فتحـــك ســـررها بتلك فتسقط السرر هنالك فيأتي إليه الجلابون في وقت من السنة قد عرفوه فيلتقطون ذلك مباحـــاً لهم"، وبين اليعقوبي أن أفضل المسك ما كان يرعي غزلانه حشيشاً يقال له الكدهمس[٧]، وأردف قائلاً:" أفضل المسك التبتي ثم بعده المسك السغدي[٨] وبعد السغدي المسك الصـــيني ثـــم المســـك

---

١ القرآن الكريم : سورة المطففين ، الآية ٢٦ .

٢ القرآن الكريم : سورة الرحمن ، الآية ١٢ .

٣ السيوطي (جلال الدين ت: ٩١١هـــ /١٥٠٥م) : سنن النسائي ، تح: عبد الفتاح أبو رغدة ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، حلب، د.ت ، ج٧ ، ص ٢١ .

٤ التبتي : نسبة إلى بلاد التبت ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٠ .

٥ الجلاب : هو من يجلب العبيد للتجارة ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٢٧٨ .

٦ المنار : بناء مرتفع ينطلق من أعلاه نور قوي ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٧١ .

٧ الكدهمس: نبات يصنف من الحشائش ينبت بالتبت وقشمير أو بإحداهما ؛ اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٣ .

٨ السغدي : نسبة إلى مدينة السغد في بلاد ما وراء النهر ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٢٢٢ .

الهندي ، ويتلوه في الجودة المسك الطغرغري (الطغزغزي)، وهو مسك رزين يضـرب إلـى السواد يؤتى به من أرض الترك، وتجلبه التجار فيغالطون به إلا أنه ليس له جوهر ولا لون وهو بطيء السحق لا يسلم من الخشونة"[١].

٢-العنبر.

ذكر اليعقوبي أن للعنبر أنواع كثيرة وأصناف مختلفة ومتباينة وأجود أنواعـه وأرفعـه وأفضله وأحسنه لوناً وأصفاه جوهراً وأغلاه قيمة (العنبر الشحري) ، وهو ما قذفه بحر الهنـد إلى ساحل الشحر من أرض اليمن وزعموا أنه يخرج من البحر في خلقـة العنبـر أو الصـخرة الكبيرة ، أما طريقة جمعه فقد أشار إليها اليعقوبي قائلاً :"تقطعه الريح وشدة الموج فترمي به إلى السواحل وهو يفور لا يدنو منه شيء لشدة حره وفورانه فإذا أقام أياماً وضـربه الهـواء جمـد فتجمعه الناس من السواحل المتصلة بمعادنه ، وربما أتت السمكة العظيمة التي يقال لها أكمـال (البال) ، فابتلعت من ذلك العنبر الطافي وهو يفور فلا يستقر في جوفها حتـى تمـوت وتطفـو ويطرحها البحر إلى الساحل فيشق جوفها ويستخرج ما فيه من العنبر وهو العنبـر السـمكي ، وربما طرح البحر القطعة العنبر فيبصرها طائر أسود شبيه بالخطاف[٢] فيأتي إليهـا ويرفـرف بجناحيه فإذا دنا منها وسقط عليها تعلقت بمخاليبه ومنقاره فيها فيموت ويبلـى ويبقـى منقـاره ومخاليبه في العنبر وهو العنبر المناقيري"[٣] .

٣-العود.

ذكر اليعقوبي : "بعد العود القاقلي العود الصنفي ويجلب من بلد يقال له الصنف بناحيـة الصين ، وهو أجل الأعواد وأبقاها في الثياب ومنهم من يفضله على القاقلي ويرى أنـه أطيـب وأعبق[٤] "،وقد ذكر ابن خرداذبة أنه أفضل من القماري لأنه يغرق في الماء لجودته وثقله[٥] .

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٣ ،١٢٤ .

[٢] الخطاف : طائر السنونو ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٣٨ .

[٣] اليعقوبي : البلدان، ص ١٢٥ .

[٤] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٦ .

[٥] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٨ .

٤-**السنبل الهندي.**

قال اليعقوبي في وصف السنبل: "السنبل أصناف وأجوده العصافير الحمر الألوان المسلل ، والمسلل هو الذي قد نقي من زغبه ومسح منه وبقي عصافير مجردة وإذا أمسكه الإنسان بكفه ساعة ثم اشتمه كانت رائحته كرائحة التفاح أو نحوها ثم الذي يليه ، وهو نوع من العصافير أحمر كثير البياض والشمط طيب الرائحة قريب من الأول"، كما أشار اليعقوبي إلى أصله قائلاً :" هو حشيشة تنبت بأرض الهند والتبت "[١] .

٥-**الغوالي.**

مفردها غالية، وهو نوع من المسك يؤخذ من المسك التبتي ، وكانت هذه الغالية تعجب الخليفة المأمون جداً وكانت تعمل لأم جعفر زوجة أبو جعفر المنصور[٢] .

٦-**اللبان.**

هو شجر لين ورقه طويل أبيض الزهر طيب الرائحة ، ذكر اليعقوبي أنه كان يطبخ بالأفاوية[٣] الطيبة، "غير أنه لا يصلح لصنع الطيب الغالية بسبب غلبة روائح الأفاوية على روائح العنبر والمسك، فلا تستعمله الملوك إلا أن تدهن به أيديها في الشتاء وتستعمله النساء في أطيابهن وخمرهن"[٤].

٧-**الكافور.**

له رائحة عطرية وطعمه مر وأصنافه كثيرة حسب ما ذكر ابن خرداذبة، وقد اشتهرت فيه بلاد الهند[٥] .

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٧ .

[٢] اليعقوبي : البلدان و ص ١٢٩

[٣] الأفاوية : التوابل أو البهارات ؛ ابن منظور : لسان العرب ، مج ٢ ، ص ٧١ .

[٤] اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٩.

[٥] ابن خرداذبة : المسالك والممالك، ص ٦٥ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٨ .

٨–الورد.

أشار ابن الفقيه أن مدينة شيراز كان يصنع فيها الماورد الجوري ، ومنها يحمل إلى جميع البلدان[١] .

٩–القرنفل.

ذكر اليعقوبي أن القرنفل كله جنس واحد وأجوده الزهر اليابس الجاف الذكي الحريف الطعم الحلو الرائحة، ويجلب من بلاد سفالة الهند وأقاصيها ، وله بالمواضع التي هو بها روائح ذكية ساطعة الطيب جداً حتى أنهم يسمون أماكن القرنفل بـ (ريح الجنة) ، لذكاء رائحته[٢] .

نستنتج من ذلك أن الرحالة أعطوا لنا وصفاً دقيقاً ورائعاً في أنواع العطور وطرق صناعتها في المشرق الإسلامي، ويبدوا أنهم شاهدوا بعينهم أو سمعوا من بعض التجار أنواع تلك العطور ، فأعطوا لنا بالتالي معلومات قيمة في هذا الجانب .

ج – صناعة العقاقير الطبية (الأدوية).

يعد علم الطب من أوسع مجالات العلوم التجريبية التي كان للمسلمين فيها إسهامات بارزة على مدار عصور حضارتهم الزاهرة ، وقد أشار رحالة القرن الثالث الهجري إلى بعض الصناعات الطبية التي كانت منتشرة في بلدان المشرق الإسلامي ، وبالتالي سنحاول هنا توضيح ذلك .

أشار ابن رسته أن بأصبهان نوع من الخلاف[٣] "يربى به السمسم[٤] فينفع دهنه من لسع الجرّارات[٥] ومنه يحمل إلى الأهواز وقد امتحن فوجد نفعه ، وبها حشيشة آثارها بدر الكبير المعروف ببدر الحمّاميّ وكان أميراً على أصبهان ، فمر في الجبانة فوجد هذه الحشيشة فنزل إليها بنفسه حتى احتش منها وتعجب من غفلة أهل البلد عنها ثم وصفها ونبه عنها فذكر أنها تنفع من

---

١ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٢٠٤ .

٢ اليعقوبي : البلدان ، ص ١٢٨ .

٣ الخلاف : شجر الصفصاف ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٤١ .

٤ السمسم : الذئب الصغير ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٥٠

٥ الجرارة : عقرب صفراء صغيرة خبيثة ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٢٧١ .

لسع الحيات وامتحنت فوجدت كذلك ثم استعملها الناس بعدها ، وبها السكبينج[١] الذي تحمل منه من قرية تسمى مورجه خرت[٢] وعليه تعتمد الأطباء ويدخلونه في كبار الأدوية ولا يوجد ذلك ألا في هذا الموضع"، وأردف قائلاً: "وفي أصبهان عين ماء يغشاها الناس في أحد شهور الصيف ، يشربون من مائها على الريق يقيمونه مقام كبار الأدوية فيعمل على الأيارجانات[٣] والأصطمخيقونات[٤] ويجدون له نفعاً"[٥].

وقد كان شجر الكافور يدخل في تركيب العديد من الأدوية ، وقد وصف الله سبحانه وتعالى (الكافور) ، بأنه من نعم أهل الجنة ، حيث يقول تعالى :﴿ إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا﴾[٦].

ويصف لنا ابن خرداذبة طريقة جمع الكافور بقوله: " وفي جبال الزابج[٧] شجر الكافور يثقب أعلى الشجرة فيسيل منها ماء الكافور في عدة جرار"[٨].

ومما يجب الإشارة إليه أن هنالك صنف آخر من النباتات التي تدخل في صناعة العقاقير الطبية ، وهو نبات (الهليلج)[٩] ، الذي مصدره بلاد الهند[١٠] ، وعلاوة على ذلك هنالك ثمر النارجيل (جوز الهند) ، كانت تستخدم في مجال الأغراض الطبية ، إذ يقول سليمان التاجر في أثناء حديثه عن أحد الجزر الهندية: " وأكلهم النارجيل وبه يتأدمون ويدهنون"[١١] .

---

[١] السكبينج: لم يتم العثور على ترجمة لهذه الكلمة.

[٢] مورجه خرت : قرية من قرى أصبهان ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٧ .

[٣] الأيارجانات: هو مرض يصيب الأمعاء ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص١٥٧ ؛ السيرافي: رحلة السيرافي ، ص ٨٧ .

[٤] الأصطمخيقونات: لم يتم العثور على ترجمة لهذه الكلمة ربما وردت خطأ من المصدر.

[٥] ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ١٥٧ ،١٥٨.

٦ القرآن الكريم : سورة الإنسان ، الآية ٥ .

[٧] جبال الزابج : تقع في الهند ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٥ .

[٨] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٥ .

[٩] الهليلج : نبات ينبت في بلاد الهند وبعض المناطق المتاخمة لها له أوراق صفراء يفيد في تسكين الألم والالتهابات ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٨ .

[١٠] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢١٥ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣٨ .

[١١] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٣ .

لقد تعددت استخدامات تلك الأنواع التي ذكرت من الأدوية والعقاقير الطبية الواردة الذكر أعلاه ، ولعله من المفيد أن نؤكد أن للأخيرة أهمية جمعاء منذ فترات قديمة وحتى وقتنا الحاضر ولم يغفل الرحالة أنواعها بحيث أعطوا لنا وصفاً وبدقة عنها ، وهذا يدل على كثــرة زيــاراتهم ومشاهداتهم لا سيما مناطق الهند ، وفضلاً عن ذلك شاهدوا بعينهم طريقة عمل تلك العقاقير مــن قبل سكان تلك المناطق .

ح – صناعات متنوعة.

إضافة لما ذكر من صناعات هامة فهناك صناعات أخرى مكملة لها ، منهــا صــناعة الجلود وذلك باستعمال جلود الحيوانات من السمور والفنك والقاقم والوشق ، إذ اشتهرت العديد من مدن المشرق بدباغة[١] الجلود وصبغها[٢]، وإلى جانب ذلك ظهرت صناعة الورق في سمرقند[٣]، ومنها انتقلت صناعته إلى العديد من مدن المشرق ، حيث أشار اليعقوبي أن في بغداد أكثر مــن مائة حانوت للوراقين[٤]، ويضاف إلى ذلك صناعة الزجاج ، حيث كان يُنتقى منه الزجاج البلوري لصفائه وجماله ، كما صنعت الأواني والأقداح[٥]من الزجاج واستخدم الزجاج المنقوش الملون في شبابيك القصور والمساجد[٦] .

يتبين مما سبق أن تطور الحياة الاقتصادية في المشرق الإسلامي خلال القــرن الثالــث الهجري لم يقتصر على العامل الزراعي والتجاري فحسب ، بل تعــدى ذلــك ليشــمل العامــل الصناعي أيضاً من خلال تنوعه وتطوره حتى أصبح من السمات الحضارية البارزة في العصــر العباسي، من خلال انتشار العديد من الصناعات ومن أهمها الصــناعات النســيجية والمعدنيــة والغذائية والعطرية والطبية وغيرها. إن ما قدم من معلومات قدم لقارئ القرن الثالــث الهجــري معلومات مهمة على الحالة الاقتصادية للعالم الإسلامي خلال تلك الفترة من خلال التعرف علــى أحوال الزراعة والنشاطات الزراعية وعلى التجارة وعلى أهم الصناعات التي كانت منتشرة فــي

---

١ الدباغة: هي مهنة يقوم فيها الدباغ بإصلاح الجلود ودبغها ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٣٥٣ .

٢ اليعقوبي: البلدان، ص ٤٤.

٣ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥١ .

٤ اليعقوبي: البلدان، ص ١٣ .

٥ القدح: هو إناء يشرب فيه، ولا يقال له (قدح) ، إلا إذا كان فارغاً ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٦٢٢ .

٦ اليعقوبي: البلدان، ص ٣١ ؛ الدوري: تاريخ العراق الاقتصادي، ص ١٢٧ .

بلدان المشرق الإسلامي، إذ تعد كتابات الرحالة عن الجوانب الاقتصادية في الأماكن التي مرو بها رافداً فياضاً لدارسي الاقتصاد في المجتمعات البشرية ، أما قارئ اليوم فيستطيع من خلال قراءة ما ورد من معلومات أن يكون فكرة عن التاريخ الاقتصادي للعـــالم الإســـلامي بـــالقرن الثالـــث الهجري ، ولا شك ان هكذا أمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة ، والتـــي انصـــب اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية .

الفصل الثالث

قراءة في التاريخ الاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري من خلال أعمال الرحالة .

كان القرن الثالث الهجري من القرون التي شهدت نهضة علمية وفكرية وثقافية على كافة الصعد، هذه النهضة امتدت من أقصى مشرق العالم الإسلامي إلى أقصى مغربه، وبحكم التمازج الديموغرافي وكثرة الشعوب التي انطوت تحت قيادة العباسيين سيكون من المهم جداً استقراء هذا الواقع الاجتماعي من خلال مجموعة من أعمال الرحالة ، وفي وقت عجزت فيه كتب التاريخ السياسي أن تسلط الضوء على هذا الواقع الاجتماعي ، سيكون هذا الفصل محاولة لقراءة هذا الواقع من خلال أعمال الرحالة الذين كانوا صلة الوصل ما بين الإنسان والآخر .

أولاً – المكون الديموغرافي للمشرق الإسلامي كما ورد في أعمال الرحالة.

معلوماٌ أن المكون الديموغرافي للمشرق الإسلامي كان متنوعاً بشكل كبير جداً ، ضم شعوب مختلفة من الفرس والترك والهنود وغيرهم ، وبقراءة لأهم الرحالة والجغرافيين خلال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، سيكون هذا المبحث محاولة لمعرفة المكونات الديموغرافية للمشرق الإسلامي .

يلاحظ أن أغلب الرحالة في القرن الثالث الهجري تجاهلوا ذكر العرب في مؤلفاتهم على الرغم أن العرب كانوا المكون الأكبر والأهم في المشرق ، وذلك لأنهم معروفون ، فالرحالة في هذا القرن كانوا يبحثون عن شيء جديد ، فبالتالي لم يتم الحديث عنهم .

أ–الفرس.

يعرف تاريخياً أن الفرس قد ناهضوا الحكم الأموي ، وساهموا بدور فعال في نصرة العباسيين ضدهم ، وكانوا سبباً في إسقاط الحكم الأموي وقيام الدولة العباسية خلفاً له ، وبناءً على هذا فقد حظي الفرس بأهمية كبرى إبان مرحلة حكم العباسيين ، فقد برز منهم وزراء وقادة كبار ، بل أقاموا دولاً مستقلة كما لوحظ ، حتى أن قسماً معتبراً من الجيش العباسي كان من الفرس ، الذين ساهموا بشكل كبير في تطور الأحداث السياسية بالدولة العباسية[١] .

[١] اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب ت: ٢٩٢هـ /٩٠٤م) : تاريخ اليعقوبي، تح : عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت، ط١ ، ٢٠١٠م ، ج٣ ، ص ٨٠ – ١٧٠ .

وقد تباينت الآراء حول أصل الفرس، فاليعقوبي ينسبهم إلى عامورا بن يافث بن نوح[١]، بينما ابن الفقيه ينسبهم إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، ويصفهم بأنهم أشجع الناس قلوباً وأعزهم نفوساً وأعظمهم ملكاً وأشدهم بأساً وأرجحهم عقولاً وأحسنهم تدبيراً وأضحكهم وجوهاً[٢]

ويقول :" كان كسرى أنوشروان[٣] إذا أفرض يقدم الفارسي على رجلين من الديلم وعلى خمسة من الأتراك وعلى عشرة من الروم وعلى خمسة عشر من العرب وعلى ثلثين من الهند"[٤].

وذكر ابن رسته أثناء حديثه عن مدينة أصبهان:" أن أهلها من الأشراف والآجلة والأخلاق الراضية والمذاهب الحميدة والأفعال البديعة ، وبُعد لهم من الصيت وشاع وانتشر من جميل الذكر حتى قصدهم بالمدائح الشعراء وطمع في نوالهم البعداء"[٥].

لم يتفق ابن خرداذبة مع ابن الفقيه وابن رسته في وصف الفرس إذ يقول :" أن الفرس في الديلم أحوالهم مذبذبة لأنه لا شريعة لهم محصلة ولا طاعة فيهم مستقرة لأنهم بعد فتحهم قد نقضوا وكفروا غير مرة وكان منهم في هذا الوقت ، ما كان من الأمور المستفظعة في قتل الأطفال والفجور في المساجد وترك الصلوات وفروض الإسلام"[٦].

وذكر اليعقوبي أن المدن المهمة التي يسكنها الفرس هي مدينة بخارى التي كان سكانها خليط من الترك والفرس والعرب[٧].

وهنا يمكن التساؤل لماذا تباينت أراء الرحالة في مؤلفاتهم عن الفرس ؟

ربما يعود ذلك إلى الانتماء الطائفي، أو ربما يعود هذا التباين إلى القرب والبعد عنهم أو أن المعلومات التي استقاها الرحالة عن الفرس قد تكون من مصادر مختلفة وليست مباشرة.

---

[١] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٢٠٠ .
[٢] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٦ .
[٣] كسرى أنوشروان : هو أحد الملوك الأكاسرة بفارس ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٢٠٧ .
[٤] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٧ .
[٥] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٣ .
[٦]ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٢٦١
[٧] اليعقوبي : البلدان ، ص ٥٧ .

ب-الأتراك.

هم عنصر أساسي في التركيبة السكانية لبلدان المشرق الإسلامي وهم قسم كبير من السكان الأصليين وهم أجناس وأصناف متعددة[١]، ومن أهم أجناسهم :

(النغزغز)، قال ابن الفقيه عنهم أنهم عرب الترك أصحاب عمد يحلون ويرحلون[٢]، وذكر ابن خرداذبة أن بلادهم أوسع بلاد الترك[٣]، وفيهم مجوس يعبدون النار وفيهم زنادقة[٤] .

و أوضح ابن رسته واليعقوبي :" أن لكل جنس من الترك مملكة منفردة ويحارب بعضهم بعضاً وليس لهم منازل ولا حصون وإنما ينزلون القباب التركية المضلعة ومساميرها سيور من جلود الدواب والبقر وأغشيتها لبود[٥] وهم أحذق قوم بعمل اللبود لأنها لباسهم ، وليس بترك إستان[٦] زرع إلا الدخن وهو الجاورس[٧] وإنما غذائهم ألبان الحجور ، يأكلون لحومها وأكثر ما يأكلون لحوم الصيد"[٨].

وانفرد ابن الفقيه في وصف عجائبهم قائلاً :" ومن عجائب الترك حصاة يستمطرون بها ما شاءوا من مطر وثلج وهذا عندهم مشهور لا ينكره أحد من الأتراك ، وهو عند ملك التغزغز خاصة وليس أحد من ملوك الأتراك غيره"[٩] .

لا نعلم ماذا يقصد ابن الفقيه في هذه العجيبة ، ربما الحصاة هم الذين يرمون الحصى على الغيوم حتى تمطر أو تثلج حسب معتقداتهم ، ومن المؤكد أن هذا الأمر خرافة ولا يمكن تصديقها.

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ٦٠ .

[٢] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢٩ .

[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣١ .

[٤] السيرافي : رحلة السيرافي ، ص ٥١ .

[٥] اللبود: هو كل شعر أو صوف متلبد بعضه على بعض، أي تداخل ولزق؛ إبراهيم: المعجم العربي ، ص ٤٤٨ .

[٦] إستان: إحدى كور السواد من الجانب الغربي ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج١ ، ١٧٤ .

[٧] الجاورس: نبات حبه كحب الأرز ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٢٦٦ .

[٨] ابن رسته: الأعلاق النفيسة ، ص ٢٩٥ ؛ اليعقوبي : البلدان ، ص ٦٠.

[٩] ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢٩ .

وقد غلب العنصر التركي على المجتمع العباسي بعدما تكاثر عددهم منذ بداءة خلافة المعتصم بالله (٢١٨ – ٢٢٧هـ \ ٨٣٣ – ٨٤٢م)[١]،((وكان أولئك الأتراك العجم إذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً ويضربون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك ، فثقل ذلك على المعتصم بالله وقام ببناء مدينة خاصة بهم وأسكنهم بها وهي (سامراء)))، ((وأفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً وجعلهم معتزلين))[٢] .

كل ذلك يدفع لطرح سؤال ، لماذا ذكر اليعقوبي عنهم أكثر من غيره ؟

ربما يعود ذلك إلى قرب اليعقوبي من الخليفة فقد كان مطلوب منه أن يقدم هذه المعلومات للسلطات الحاكمة.

ت – الهنود.

كان الهنود من الجماعات القليلة التي ظهرت في المشرق الإسلامي ، ويصنفهم ابن خرداذبة إلى سبعة أجناس ، "الشاكثرية وهم أشرافهم فيهم الملك تسجد الأجناس كلها لهم ولا يسجدون لأحد ، والبراهمة وهم لا يشربون الخمر والأنبذة ، والكسترية يشربون ثلثة أقداح فقط لا تزوجهم البراهمة ويتزوجون فيهم ، والشودرية وهم أصحاب زراعة ، والببشية وهم أصحاب صناعات ومهن ، والسندالية وهم أصحاب لهو ومعازف ولعب"[٣].

ذكر ابن رسته في صفة بلاد الهند :" أن عامة ملوك الهند يرون الزنا مباحاً ما خلا ملك قمار"[٤]، و أضاف :" ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليلةً ولا كثيراً ويغافون الخل من الأشربة فخلهم من ماء الأرز المطبوخ يحمصونه حتى يصير بمنزلة الخل ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس ويقولون هذا رجل ليس له قدر في بلاده وليس ذلك منهم ديانة "[٥].

---

[١] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٩٩ .
[٢] اليعقوبي: البلدان، ص ٢٣ ، ٢٦ .
[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٥ .
[٤] قمار : موضع بالهند ينسب إليه العود ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٩٦ .
[٥] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٢ ،١٣٣ .

يلاحظ في كلام ابن رسته عن الهنود بأنهم لا يشربون الشراب فيه مبالغة ، فليس هذا أمراً عاماً فقد يكون هناك بعض الأفراد في المجتمع الهندي يشربون الشراب، فكل مجتمع لا بد أن يكون فيه الملتزم وغير الملتزم فلكل قاعدة شواذ .

وهنا نطرح سؤال ، لماذا ملك قمار وحده حرم الزنا والشراب؟

ربما يعود ذلك إلى قربه من بلاد المسلمين دفعه إلى اتخاذ قرارات التحريم في الزنا والشراب .

لقد انفرد ابن خرداذبة عن غيره بذكر صفات الهنود في جزيرة الرامي الهندية فقـال :((إن في جزيرة الرامي ناس عراة في غياض لا يفهم كلامهم لأنه صغير وهم صـغار ، وطـول الإنسان منهم أربعة أشبار ، للرجل ذكر صغير وللمرأة فرج صغير ، شعر رؤوسهم زغب أحمر ويتسلقون على الأشجار بأيديهم من غير أن يضعوا أرجلهم عليها))[١].

وهنا نرى أن كلام ابن خرداذبة فيه بعض المبالغة أو أنه ألتقى بقوم معينين من الهنود تحمـل هذه الصفات .

لقد تحدث ابن الفقيه وسليمان التاجر عن بعض جوانب حياتهم، منها " أن أهل الهنـد لا يأكلون حتى يستاكوا ويغتسلوا ، والرجال يطولون لحاهم إلى ثلاثة أزرع ولا يأخذون شـواربهم وإذا حبسوا رجلاً أو لازموه منعوه من الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون ، ويقتلون مـا بريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى تموت ولا يغتسلوا من جنابة، ويغتسلون كل يوم قبل الغداء ثم يأكلون، ومن عاداتهم أنهم لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن مـن منـازلهم تقززاً منهن"[٢].

كما ذكر السيرافي على لسان سليمان التاجر تفاصيل مهمة عن طقوسهم في إحراق أنفسهم ، إذ يقول:" وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طبخ له أرز ثم وضع بين يديـه علـى ورق المـوز وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم ، فيعطـيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه ، ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منهم شيئاً يسيراً فيأكله ،

---

[١] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٥ .

[٢] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٤ ؛ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٧ .

فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن أخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر"[١].

وانفرد اليعقوبي في مدح الهنود وتمجيدهم، إذ يقول:" والهند أصحاب حكمة ونظر ، وهم يفوقون الناس في كل حكمة ، فقولهم في النجوم أصح الأقاويل وقولهم في الطب مقدم"[٢]، كما نوه ابن الفقيه في هذا الصدد ، قائلاً:" وأهل الهند أطباء حكماء منجمون"[٣].

وهنا نتسأل ، لماذا مدح اليعقوبي وابن الفقيه الهنود ؟

ربما يعود ذلك إلى طبيعة الأشخاص الذين قابلوهم ،وبالتالي كانت المعلومات متباينة حسب المكون الذي قابله كل رحالة.

ث – المكونات الأخرى.

لم تقتصر التركيبة البشرية للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، على الفرس والترك والهنود في مؤلفات الرحالة، بل يوجد مزيج أخر من الروم واليهود والرقيق وغيرهم . ، ولكل مميزاته التي تلتقي مع غيره، وهناك ما لا تتفق :

١ –الروم.

هم من نسل يونان بن يافث بن نوح كما ذكر اليعقوبي في تاريخه ، ويقول:" وكانت ملوك الروم مختلفة، فطائفة منهم على دين الصابئين[٤] وكانوا يسمون الحنفاء، وطائفة منهم أصحاب زينون، وهم السوفسطائية أو أو السوفسطائيين"[٥].

---

[١] السيرافي : رحلة السيرافي ، ص ٧٨ .

[٢] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٢٥ .

[٣] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٤ .

[٤] الصابئين : في اللغة : صبأ الرجل إذا مال وزاغ ، فبحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيفهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة ؛ الشهرستاني (محمد بن عبدالكريم ت: ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) : الملل والنحل ، تح : أمير علي مهنا وعلي حسن فاعور ، دار المعرفة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٩٣م ، ص ٣٠٧ .

[٥] السوفسطائية : فرقة ينكرون الحسيات والبديهيات وغيرها ويعملون على تمويه الحقائق ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٨٩ .

بينما ذكر ابن الفقيه أن الروم ملكانية[1] يقرأون بالإنجيل بالجرمقانية[2]، ويضيف: "وهم أصحاب بقر وخيل وشاه ويحكمون بحكم التورية ، وهم أهل صناعات وحكم وطب ، وهم أحـــذق الأمـــة بالتصاوير ، يصور مصورهم الإنسان حتى لا يغادر منه شيئاً"[3].

لقد تحدث ابن خرداذبة عن مكانة الملك عند الروم ، قائلاً: " الملك أكبر الروم في أنفسهم وأعزه عليهم وليس الملك فيهم وراثة ولا كتاب متبع أنما هو غلبة وقد ملكهم رجال ونساء وملكهم يدعى باسيلي ولباسه الفرفير ، صنف من الحرير فيه لمع إلى السواد قليلاً ، ولا يلـــبس الفرفيـــر والخف الأحمر إلا الملك، ومن تعرض لذلك قتل"[4].

كما أشار ابن الفقيه وابن خرداذبة إلى أن تمويل جيوش الروم كان يعتمـــد علـــى مـــال الخراج الذي هو مساحة كل مائتي مدى[5] ثلاثة دنانير في كل سنة ويأخذ عشر الغلات فيصير في الأهراء للجيوش، ويبين ابن خرداذبة أن ليس في عساكرهم أسواق، إنما يحمل الرجل من منزلـــه كعكه وزيته وخمره وجبنه[6] .

و ذكر ابن رسته البعض من صفاتهم ، منها "أنهم يحلقون لحاهم كلها لا يتركـــون منهـــا شعرة واحدة على أذقانهم ويحلقون وسط هاماتهم فسألهم عن السبب في حلق لحاهم ، فقال لهـــم : إن زين الرجال في اللحى فما مرادكم من هذا الذي تفعلونه بأنفسكم ، فقالوا : إن كل من لم يحلق لحيته لم يكن نصرانياً خالصاً"[7]، هذا يدل على أنه كان قادر على التواصل معهم.

لا يفوت عن التنويه، فقد أدت الحروب المتصلة بين المسلمين والبيزنطيين إلى أسر عدد كبير من الروم واسترفاق كثير منهم ، فانتشر العبيد الروم تبعاً لذلك من رجال ونساء وغلمان في بيوت الخلفاء والأغنياء في المشرق الإسلامي .

---

[1] الروم الملكانية : هم أصحاب ملكا الذي ظهر بأرض الروم وأستولى عليها ؛ الشهرستاني : الملل والنحل ، ص ٢٦٦ .

[2] الجرمقانية : لم يتم العثور على ترجمة لهذه الكلمة ، فربما تكون الجرمقانية فرقة من الفرق المسيحية .

[3] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٣٦ ؛١٣٧ .

[4] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٠٩ .

[5] المدى : المسافة ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٢٢ .

[6] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ١٤٧ ؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١١٣ ، ١١٧ .

[7] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٠ .

٢- اليهود.

هم المتمسكون بشريعة النبي موسى عليه السلام ، وكتابهم التوراة الذي نزل عليه[١]، وقد كانت أعداد اليهود كبيرة في المشرق، ومارس اليهود العمل التجاري، وكادت بعض الأعمال التجارية أن تكون مقتصرة عليهم، وحقق العديد منهم ثراءً كبيراً، ففي العصر العباسي كان الكثير من التجار في العراق من اليهود الذين يتكلمون العربية والفارسية والرومية والصقلبية والأندلسية[٢].

وضح ابن خرداذبة أن التجار اليهود كانوا يسافرون من المشرق إلى المغرب وبالعكس براً وبحراً، فيجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج والفراء والسيوف إلى أسواق بغداد والسند والصين، وأحياناً يتوجهون بتجارتهم إلى القسطنطينية فيبيعون بضائعهم للروم[٣].

يبقى التساؤل لماذا اقتصر حديث الرحالة على التجار فقط من اليهود ؟

ربما يعود ذلك إلى المكانة التي حظي بها اليهود في السوق التجارية، بينما باقي فئات الشعب كانت منعزلة وهذا يدل على أن اليهود كانوا منعزلين عن المجتمع .

٣- الرقيق.

كان هذا العنصر من العناصر التي تكاثر عددها في المشرق الإسلامي ، فقد كانت قصور الخلفاء والأمراء تأوي الكثير من الرقيق وعلى الأخص الجواري الذين كانوا من أجناس متنوعة.

ذكر اليعقوبي عندما قام المعتصم بالله ببناء مدينة سامراء للأتراك اشترى لهم جواري وزوجهم منهن[٤]. كما أقبل الأمراء على شراء الغلمان لأنهم عناصر مناسبة جداً للجندية فيهم الشجاعة وقوة البأس والقوة الجسمانية .

كان هناك أسواق للرقيق في بعض المدن الكبيرة ، ويشير اليعقوبي في أثناء حديثه عن مدينة بغداد أنه كان فيها نواح أطلق عليها (باب النخاسين) ، الذي كان يقع في أول شارع باب

---

[١] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٥٩ .

[٢] ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٢٧٠ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣.

[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

[٤] اليعقوبي: البلدان، ص ٢٦ .

الكرخ، ويبين أنه كان في مدينة سامراء سوق لبيع الرقيق تتخلله طرق متشعبة، به عدة حجرات لبيع الرقيق[١].

أوضح ابن خرداذبة أن الرقيق كان يرسل إلى الخليفة في بغداد ضمن واردات الضرائب ، فقد كان عبدالله بن طاهر[٢] يرسل إلى الخليفة ألفي رأس من السبي الغزية في كل عام ، كما أشار إلى بعض أنواع الرقيق منه الرقيق الصقلبي الأبيض الذي يرد من طريق الغرب ، ويقوم بهذه التجارة اليهود الرازانية الذين يتحدثون باللغات العربية والفارسية والرومية، حيث يجري توزيعه إلى العراق وسوريا وبلاد الروم[٣]، وكان الرقيق الأسود يرد من أماكن عدة، أهمها السودان والصومال[٤] .

بطبيعة الحال كانت تنقلات الرحالة في القرن الثالث الهجري لبلاد المشرق الإسلامي عوناً كبيراً لعمل المؤرخ والجغرافي ، وذلك بتأكيدها الوقائع عن طريق المشاهدة والمعاينة ، وهكذا فإن الرحالة عندما تنقلوا ومروا بهذه البلاد قد ذكروها ، وألقوا الضوء على أهميتها السياسية والاقتصادية والدينية والطبيعية ، فيكون والحالة هذه قد ضُمّن طيات كتبهم لمحات ليست بالقليلة عن المكون الديموغرافي للمناطق التي زاروها .

ثانياً – طبيعة العلاقات بين المكونات السكانية للمشرق الإسلامي.

بدأت علاقات المسلمين مع غيرهم في التاريخ الإسلامي، منذ العهد المكي، وكانت الدولة العباسية إحدى الدول الإسلامية الطويلة العمر في التاريخ الإسلامي التي حكمت رقعة جغرافية واسعة، وكانت بغداد هي إحدى عواصم هذه الدولة ، وثمة أمور تعني بها رسائل القانون، والعهود، والأمانات، والسجلات الشرعية ، تتمثل في تلك التطبيقات التي حدثت في هذه المدينة وغيرها من مدن المشرق الإسلامي التي عاش فيها المسلمون والمسيحيين واليهود والمجوس وغيرهم، متداخلين مع بعضهم البعض على مدى عقود طويلة في إطار العديد من العلاقات، مثل: علاقات الجوار، والقرابة، والشراكة، وأرباب العمل والعمال، وهي تشكل نموذجاً من أهم نماذج

---

[١] اليعقوبي: البلدان،ص١٤، ٢٣، ٢٧ .

[٢] عبدالله بن طاهر: هو والي خراسان من قبل الخليفة المأمون؛ عدوان: موجز في تاريخ دويلات المشرق،ص٢٤.

[٣] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٣٩ ، ١٥٣ .

[٤] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٢٣٧ .

الحياة المتعددة الثقافات ، وسيحاول هذا المبحث توضيح طبيعة العلاقات بين المكونات السكانية للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري كما ورد في أعمال الرحالة.

أ-علاقة المسلمين مع المسيحيين.

عرف المسيحيون بأنهم أهل الكتاب نسبة إلى الكتاب السماوي الذي نزل عليهم وهو الإنجيل الذي نزل على نبي الله عيسى عليه السلام .

من المعروف أن المسيحيون كانوا يعيشون في ذمة المسلمين بموجب عهود كانت ترعى مصالحهم مقابل جزية يؤدونها عن رؤوسهم .

كانت السياسة السائدة للدولة العباسية تجاه المسيحيين سياسة التسامح واحترام وأن بعض المسيحيين ارتفعت منزلتهم لدى الخلفاء العباسيين، إلا أن هذه السياسة التسامحية الغالبة كان يعتريها بعض التذبذب لعوامل خارجية تتمثل بعلاقة الدولة العباسية بالدولة البيزنطية ولأسباب داخلية تتعلق بمدى التزام المسيحيين داخل الدولة العباسية بقراراتها .

فمنذ بداية العهد العباسي كانت الأديرة المسيحية منتشرة في جميع أنحاء بغداد حتى لم تخل منها ناحية، ويذكر اليعقوبي أنه كان في بغداد دير للنصارى، يدعى الدير العتيق، نزله الجاثليق رئيس النصارى[١] النسطورية[٢].

لقد تولى المسيحيين بعض الأعمال في الدولة العباسية ، كالدواوين وأعمال السطات وكانوا يتعلمون في كتاتيب المسلمين[٣]، كما حظي الأطباء المسيحيين بمكانة مرموقة عند الخلفاء والأمراء، فقد ظهرت نخبة متميزة منهم في مختلف عهود الخلفاء، وكان نفوذهم كبيراً في البلاط وفي حياة الناس اليومية، وظهرت منهم أسر توارثت مهنة الطب ، لعل أشهرها أسرة آل بختشيوع، التي كانت تتمركز في البداية في مدينة جند يسابور في بلاد فارس[٤] .

---

[١] اليعقوبي: البلدان ، ص ٤ .

[٢] النسطورية: هم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه ؛ الشهرستاني: الملل والنحل ، ص ٢٦٨

[٣] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي، ج٣ ، ص ٢١١ .

[٤] اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٨ .

واستمر استخدام المسيحيين في الإدارات الرسمية إلى فترات طويلة، إلا أنهم تعرضوا لنقمة بعض الخلفاء ، فقد أمر المتوكل وهو في مواجهة البيزنطيين ، بأخذ المسيحيين في بغداد بمخالفة هيئتهم هيئة المسلمين في لبسهم وركوبهم ، ويشير اليعقوبي أن في سنة ٢٣٥هـ - ٨٤٩م ، أمر المتوكل بلبس المسيحيين الطيالسة العسلية وركوبهم البغال والحمير بركب الخشب والسروج التي فيها الآكر[١]، ولا يركبوا الخيل والبراذين ويصيروا على أبوابهم خشباً فيها صورة الشياطين ، كما أمر أن لا يستعان بأحد من المسيحيين في شيء من عمل السلطان وأن تهدم الكنائس والأديرة المسيحية ، ومنعوا من العمارة وكتب بذلك في الأفاق[٢].

يتضح لنا من أوامر المتوكل في التضييق على المسيحيين إنما تأتي بعد أحداث تهم أمن المملكة ، فقد كان موقفه يعبر عن ضيقه بالوضع المضطرب على الحدود الإسلامية – البيزنطية ، ومن جهة أخرى كان المتوكل يعاني من صراع على السلطة مع الأتراك ، فكانت إجراءاته ضد المسيحيين إحدى الوسائل التي لجأ إليها تقرباً من العامة .

إلا أن هذه المظاهر العدائية تبقى استثنائية ، فقد تمتع المسيحيين في القرن الثالث الهجري بحرية وتسامح ، ومارسوا حياة عادية لا يختلفون عن غيرهم ، وكانوا يتقدمون في القاضي المسلم لينظر في دعاواهم[٣] .

لذلك يجب الأخذ بالحسبان أن ما عرف بالتضييق على المسيحيين في بعض فترات الدولة العباسية وإلزامهم القانون الإسلامي فهي أمور اقتضتها أسباب سياسية وأمنية من تثبيت دعائم الحكم لم يستثن منها حتى الطوائف الإسلامية .

وهنا نطرح سؤال ، لماذا أغفل باقي الرحالة ذكر المسيحيين ؟

وذلك يعود إلى عدم الاحتكاك بهم، أو اعتبروهم معروفون وبالتالي هم يبحثون عن شيء جديد.

---

[١] الآكر : هو الذي يحرث الأرض ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ١١١ .

[٢] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٣ ، ص ٢١١ ،٢١٢ .

[٣] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٣ ، ص ٢١١ ، ٢١٤ .

ب – علاقة المسلمين مع اليهود.

كان اليهود كالمسيحيين يعيشون في ذمة المسلمين بموجب عهود كانت ترعى مصالحهم مقابل جزية يؤدونها عن رؤوسهم .

فقد عرف عن معظم الخلفاء العباسيين التسامح الديني ، فتمتع اليهود مثل غيرهم من السكان بدرجة كبيرة من الاستقرار والطمأنينة والازدهار .

لقد حظي اليهود بمكانة مرموقة في المجتمع العباسي لمعرفتهم بعض العلوم ، فقد كان (ما شاء الله) اليهودي من بين منجمي العديد من الخلفاء ، الذي كان عارفاً بأمور الكواكب والنجوم وأوحد زمانه في رصد النجوم[١] .

لقد تمكن أثرياء اليهود من الوصول إلى مركز ثابت بتعاطيهم مع رجال الدولة ، فقد تركز جل نشاطهم بالعمل التجاري ، وكانوا حلقة الإيصال التجاري بين بلاد الإسلام وبلاد النصرانية ، وكان يعينهم على النجاح في التجارة مهاراتهم في تعلم اللغات ، وهذا ما أكده ابن الفقيه وابن خرداذبة بقولهم :((وقد كان هؤلاء التجار اليهود الذين يتكلمون اللغات العربية والفارسية واليونانية والهندية والإسبانية والصقلبية))[٢].

أشار اليعقوبي إلى أن اليهود أخذوا بالغيار الذي فرضه المتوكل عل أهل الذمة ، الذي يذكر أنه كان عسلي اللون لكي يتم تمييزهم عن المسلمين ، كما أمر بهدم معابدهم المحدثة وتسوية قبورهم مع الأرض، وأن لا يستعان بأحد منهم في شيء ، ومنعوا من العمارة[٣] .

يلاحظ أن موقف المسلمين من اليهود كان متوقفاً على الظروف والملابسات، فإن كان الصراع تمرداً داخلياً، كان الحزم هو سيد الموقف، أما في حالات الاستقرار فقد كانت العلاقات هادئة .

---

١ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١، ص ٩٧ ؛ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب ت : ٢٩٢هـ /٩٠٤م) : مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم، تح : مضيوف الفرا ، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، مد ٥ ، العدد ٥، ١٩٩٣م، جامعة قطر، ١٩٩٣م، ص ٢٠٣ .

٢ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٧٠ ؛ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٥٣ .

٣ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٣ ، ص ٢١٢ .

ت – علاقة المسلمين مع المجوس.

المجوس ، كلمة فارسية ، وهم أمة من الناس لهم نحلة خاصة يعبدون النار ، وبما أنهم عبدة النيران قالوا أن للعالم أصلين نور وظلمة ، ويعتقدون كذلك أن هناك قوتين الخير والشــر ، وأن الخير من النور والشر من فعل الظلام أي أن دينهم ومذهبهم يعتمد بشكل كلي حول هــاتين القاعدتين[١] .

ومن أهم الطوائف المجوسية (الزرادشتية)[٢] ، ويذكر ابن الفقيــه واليعقــوبي أن أول ملــوك الفرس المتمجسة كان أزدشير بن بابك[٣] الذي كان ملكه [٤] باصطخر[٥] .

لقد تسامح الخلفاء العباسيين مع المجوس، ولم يتدخل العباسيين فيهم ومارس المجــوس (الزرادشتية)، عباداتهم وشعائرهم بحرية ضمن الدولة الإسلامية، وانتشرت معابدهم فــي بعــض المناطق، والدليل على ذلك هو ما أشار إليه ابن رسته في أواخر القرن الثالث الهجري \ التاســع الميلادي، أنه كان هناك معبد النار يعظمه المجوس (الزرادشتية)، في قريــة آخــرين الواقعــة بالقرب من حلوان[٦] يقصده الناس من أقاصي البلاد للعبادة[٧]، كما بين ابن الفقيه أنه يوجد فــي قرية الفردجان[٨] بيت نار عتيق خاص بالمجوس[٩] .

هذا أن دل على سماحة الإسلام والمسلمون الذين عاملوا المجوس معاملة أهل الكتب الســماوية وتركوا لهم حرية ممارسة شعائرهم .

---

١ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٠٠ ،٢٠١ .

٢ الزرادشتية : أولئك أصحاب زردشت بن يورشب ، أبوه كان من أذربيجان وأمه من الري ، زعموا أن لهم أنبياءً وملوكاً ؛ الشهرستاني : الملل والنحل، ص ٢٨١ .

٣ أزدشير بن بابك: هو أول ملوك الفرس الأكاسرة في بلاد فارس؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٠١ .

٤ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٨ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ٢٠١ .

٥ اصطخر : بلدة بفارس تقع في الإقليم الثالث ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢١١ .

٦ حلوان : مدينة جليلة كبيرة أهلها أخلاط من العرب والعجم من الفرس والأكراد افتتحت أيام عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) ، وخراجها على أنها كور الجبل داخل في خراج طساسيج السواد ؛ اليعقوبي : البلدان، ص ٣٧ .

٧ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٥ .

٨ الفردجان : قلعة مشهورة من نواحي همذان من ناحية جرا ويقال لها براهان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٤٧ .

٩ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٤٦ .

وخلاصة القول، إن ما يميز المشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري ، هو أنه تكــون مــن أجناس مختلفة ، وفضلاً عن ذلك تميز بالتسامح الديني وهذا ما أكد عليه الرحالة ، الــذي مكــن عناصر سكانية غير مسلمة من أن تحظى بالحرية التامة أو الشبه التامة في ممارســة شــعائرهم الدينية ، إضافة إلى انخراطهم في بعض الوظائف الإدارية ، فضلاً عن إسهامهم في مجالات شتى منها المشاركة في الحياة العلمية والثقافية والتجارية.

ثالثاً – العادات والتقاليد.

إن اختلاف العادات والتقاليد أمر مرتبط باختلاف الانتماءات الدينية والعرقية وبمــا أن المشرق الإسلامي كان يضم الكثير من الشعوب المتباينة عرقياً وطائفياً ، فمن الطبيعي القول بأن عاداتهم وتقاليدهم كانت متباينة إلى حد ما، وبقراءة لأهم مؤلفات الرحالة والجغرافيين في القــرن الثالث الهجري، سيكون هذا المبحث محاولة لتسليط الضوء على أهم العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المشرق الإسلامي.

ذكر ابن الفقيه بعض عادات أهل آرجان[١] منها،" أنه يوجد لديهم كهف في جبل ينبع فيه ماء فيستحيل مومياى[٢]أبيض وهو المومياى الأبيض وقد علق على باب الكهف باب حديد يفــتح ذلك الباب من الحول[٣] إلى الحول يوماً واحداً بحضرة المشايخ والصلحاء من أهل البلــد ، ثــم يتعرى رجل ويدخله ويجمع ما هناك في قارورة فيكون ما يجتمع في جميع السنة مقــدار مائــة مثقال يزيد أو ينقص إلا أنه قل ما يزيد على المائة المثقال ثم يختم الباب ويقفل عليه إلى قابل من ذلك الوقت ويوجه بتلك القارورة مختومة بخاتم القاضي والوالي إلى السلطان وخاصــيته ، لكــل صدع أو كسر عظم يسقى منه مثل العدسة بالماء إذا شرب فيذهب على المكان إلى موضع الكسر أو الوهن فيصلحه ويلحمه"[٤].

---

[١] آرجان: مدينة كبيرة كثيرة الخير ، سهلية جبلية ، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة ، وبينها وبين شيراز ستون فرسخاً، وبينها وبين سوق الأهواز ستون فرسخاً ؛ الحموي: معجم البلدان ، ج ١، ص ١٤٣ .

[٢] المومياى: لم يتم العثور على تعريف خاصة بهذه الكلمة سوى ما ذكره ابن رسته ان المومياى نوع من المعادن ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٧ .

[٣] الحول : هو السنة ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي ، ص ٣٢٠ .

[٤] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٩ ،٢٠٠

وأورد ابن رسته بعض العادات والتقاليد في أصبهان قائلاً:" وفي أصبهان عين مـاء يغشـاها الناس في الشهر الذي يقال له بالفارسية ماه تير[١]، من شهور الصيف فيشربون من مائها علـى الريق يقيمونه مقام كبار الأدوية فيعمل على الأيارجانات وغيرها ويجدون له نفعاً ، وإذا شـرب من هذا الماء في غير هذا الشهر لم يعمل على ذلك العمل ولم يجد له نفع"[٢].

أضاف ابن رسته :" وبها حمتان[٣] يقصدها الناس من المواضع الشاسعة لا يستنقع فيهما أحد قد شبكته الرياح أو ظهرت به حكة أو بثور ألا أعقب الصحة ، ووجد منها الراحة ، أحداهما بقرية يقال له الميمور[٤]من رستاق الخيز[٥] من آنار[٦] والأخرى في مفازة من البلد على عشـرة فراسخ بالقرب من ضياع برزاوند[٧]، فأما ما يجري من ماء هذه الحمـة فإنـه إذا خـرج عـن الموضع المعمول له استحال حجراً وينفع ذلك لأوجاع كثيرة ولبثور تظهر بالناس إذا سحق وذر عليها"[٨].

عند حدوث البرد في أصبهان يذكر ابن رسته أن الأهالي كانوا يقومون ببعض العـادات الخاصة بهم ، منها " أنهم يقومون بنصب خشبة مؤلفة من خرزتان إحداهما مثل البيضة الكبيـرة والأخرة دوينها منظومتان فوق خشبة برستاق رويدشت[٩]، في ذروة حائط مرتفع فيذيبان البـرد حتى يستحل مطراً"[١٠].

---

[١] ماه تير: هو الشهر الرابع من السنة الشمسية الإيرانية ، اليوم الثالث عشر؛ التوبخي (محمد): المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٠م ، ص ١٩٤ .

[٢] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٨ .

[٣] الحمة: الموضع الذي يُحمى ويدافَع عنه، كالدار والمرعى وما إليهما؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص٣١٥ .

[٤] الميمور : قرية في أصبهان؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٨ .

[٥] الخيز: قرية من قرى أصبهان؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٠٩ .

[٦] آنار: بليدة كثيرة المياه والبساتين من نواحي أذربيجان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٥٧ .

[٧] برزاوند : قرى تقع في أصبهان ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٨.

[٨] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٨.

[٩] رويدشت : قرية من قرى أصبهان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

[١٠] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٩ .

وذكر ابن الفقيه أن أهل سجستان "اعتادوا على تربية القنافذ وقل بيت لا يكون فيه قنفذ وذلك أن أفاعيها كثيرة ، وهو بمنزلة السنانير[1]عندنا ، لكثرة أفاعيها وهي بمنزلة النمس[2] بمصـــر لكثـــرة ثعابينها"[3].

كما ذكر ابن الفقيه عادة من عادات أهل خراسان،" أنهم يطرحون اللحم في المكان الـــذي يريدون التنقيب فيه عن الذهب ، وذلك خوفاً من أن يدركهم النمل الذي يشبه الكلاب السلوقية على حد تعبيره"[4].

تحدث ابن خرداذبة عن عادة كانت سائدة في مدينة كِسَّ[5]،"وهي أن رعاة الغــنم كـــانوا يوردون غنمهم إلى عين ماء ضمن المدينة، وكان الرعاة يضربون الوتر واليـــراع والمزمـــار ، ويطغون على وجه الماء ويستمتعون ويتلذذون بالغناء والطرب"[6].

أورد اليعقوبي بعض العادات والتقاليد التي كانت منتشرة في العراق منهـــا " أن التجـــار وأصحاب المهن لا يختلطون بغيرهم[7]، فقد كان لكل حرفة أو مهنة سوقاً خاصاً، كما تخصـــص كل سوق بسلعة معينة، وتعرف به صناعة معينة أيضاً ، وذلك تسهيلاً لعملية الإشراف والرقابـــة على الأسواق وتنظيم عمل المحتسب[8]، بالإضافة إلى مساعدة التجار والصناع بعضهم بعضـــاً ، خاصة في أوقات الأزمات سواء أكانت أزمات مالية أو غير مالية ، قد أدت إلـــى إيجـــاد ذلـــك التخصص الحرفي الدقيق لها".

---

[1] السنانير : هو الهر أو القط ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٥٢ .

[2] النمس: هو حيوان قصير اليدين والرجلين طويل الذنب، يصيد الفأر والحيات ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص ٨٢٢ .

[3] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٠٨ .

[4] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢٥ .

[5] كِسَّ : مدينة تقارب سمرقند، وهي مدينة خصبة تدرك فيها الفواكه أسرع ما تدرك بسائر ما وراء النهر؛ الحموي: معجم البلدان ، ج ٤، ص٤٦٠ .

[6] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٨١ .

[7] اليعقوبي: البلدان، ص ٢٨.

[8] المحتسب: مأمور في البلد ينظر في أمواله وغيرها ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص ٧١٦ .

وقد أشار اليعقوبي أن الخلفاء العباسيين اعتادوا على اتخاذ اللون الأسود زياً رسمياً لهم ، على اعتباره شعاراً لدولتهم ، ويلزمون الناس بالسواد[1] .

من المعروف في التاريخ أن العباسيين كانوا يلقبون بالمسوَّدة ، نسبة إلى اللون الأسود، وذلك أنهم اعتمدوا هذا اللون شعاراً لهم ، وذلك أن راية الرسول عليه الصلاة والسلام راية سوداء كانت تدعى العقاب ...... ، ويبدو أيضاً أن اللون أتخذ بالضد من شعار الأمويين وهو البياض، فكانت راية العباسيين سوداء، وتنطوي وجهة النظر السياسية أن سبب اتخاذ العباسيين اللون الأسود كشعار لهم هو حزناً لمقتل الحسين بن علي عليهما السلام [٢].

ومن العادات السيئة التي ذكرها اليعقوبي هي، إخصاء الخدم[٣]، وقد حرم الإسلام ذلك ، وقد احتال المسلمون للإفلات من حرمة الإخصاء بأنهم كانوا يشترون الخصيان تاركين لليهود والنصارى أثم هذا العمل الشنيع.

كما أورد سليمان التاجر العديد من العادات عن الهنود منها: " إذا ادّعى رجل على رجل آخر دعوى يجب فيها القتل قيل للمدّعي : أتحامله النار ؟ فيقول : نعم . فتُحمىَ حديدة (إحماءً) ، شديداً حتى يظهر النار فيها ثم يقال له : أبسط يدك . فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق، ثم يمشي بها مقبلاً ومدبراً حتى يلقيها عن يده ، فيؤتى بكيس من جلود فتدخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان ، فإذا كان بعد ثلاث أُتي بأرز غير مقشر فيقال له: افركه. فإن لم يكن في يده أثر فقد فلج[٤] ولا قتل عليه ويغرّم الذي ادّعى عليه مناً من الذهب يقبضه السلطان لنفسه . وربما أغلوا الماء في قدر حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد يدنو منه ثم يطرح فيه خاتم حديد ويقال : أدخل يدك فتناول الخاتم . وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة ويغرم على المدّعي أيضاً مناً من ذهب"[٥].

---

[1] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص ١٧٩ .

[2] حسن: تاريخ الإسلام ،ج٣، ص ٢٥٠.

[3] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص ١٦٦ .

[4] الفلج : الظَّفر والفَوزُ ؛ التاجر: عجائب الدنيا، ص ٥٥ .

[5] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٥ .

أشار أيضاً سليمان التاجر إلى أن الهنود يزعمون أن البددة[١] تكلمهم وأنهم يكلمون عبادهم[٢]، وبين ابن رسته أن الهنود يقولون أن هذا الصنم نزل من السماء وأمرنا بعبادته وله سدنة يقومون عليه وله نفقات من دخل الصنم سوى ما يجري على سدنته يطعمون ويسقون ويكسون والهند كلها ترى الحج إليه ويحلقون رؤوسهم عنده ، ويطوفون سبعاً على اليسار تقرباً إليه وتضرعاً ، ويتمرغون بين يديه ويخشعون[٣] .

كما تحدث سليمان التاجر عن عادة أهل سرنديب في موت ملوكهم قائلاً :" وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صُير على عجلة قريباً من الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذاً فيكم ، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا، وأخذ روحه ملك الموت ، فلا تغتروا بالحياة بعده ، وكلام نحو هذا ثلاثة أيام ، ثم يهيأ له الصندل[٤]، والكافور والزعفران فيحرق به ثم يرمى برماده في الريح"[٥].

ومن بعض العادات السيئة المنتشرة في بلاد الهند (الزنا) ، وهذا ما أكد عليه ابن خرداذبة[٦] وابن رسته[٧] وابن الفقيه[٨] وسليمان التاجر[٩]، فاتفقوا جميعاً إلى أن الزنا مباح عند ملوك الهند ما خلا ملك قمار فإنه يحرم الزنا والشراب .

لقد انفرد ابن رسته في الحديث عن عقوبة الزنا والشراب عند ملك قمار ، وهذه العقوبة أن يقوم الملك بإحماء مائة حلقة من الحديد بالنار ثم يوضع ذلك كله على يد ذلك الرجل الزاني أو الشارب ، ومن عقوبته أيضاً قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين[١٠].

---

[١] البددة : اسم للصنم الذي يعبد عند الهنود ؛ السيرافي : رحلة السيرافي ، ص ٤٩ .

[٢] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٨ .

[٣] ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١٣٦.

[٤] الصندل: شجر هندي أبيض الزهر خشبه طيب الرائحة ؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص ٥٠١ .

[٥] التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٥٥ .

[٦] ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٦ .

[٧] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٢ .

[٨] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٥.

[٩] التاجر : عجائب الدنيا، ص ٥٨ ؛ السيرافي : رحلة السيرافي ، ص ٦٨ .

[١٠] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٣ .

وتحدث سليمان التاجر عن الزواج في بلاد الهند حيث قال : "وإذا أراد أحد منهم أن يتــزوج لــم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم فإذا قتل اثنين زوج اثنتين وكذلك إذا قتل خمســين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفاً "، وسبب ذلك أن أعدائهم كثر فمن أقدم على القتل أكثر كان رغبتهم فيه أوفر، ويضيف : "أن في يوم الزواج يتهانوا فيما بينهم ثم يتهادوا ثم يشهرون الزواج بالطبول، وهديتهم من المال على قدر الأمكان"(١).

لا مناص من القول لقد كانت الرحلة عوناً كبيراً لعمل المؤرخين والجغرافيين على حــد سواء، بتأكيدها الوقائع عن طريق المشاهدة والمعاينة، وبهذا ساهم الرحالة والجغرافي في توسيع مداركنا حول مجتمعات المشرق الإسلامي، بفضل ما أوردوه من معلومات عن طريق اتصــالهم بالبلدان و الأقوام على مر الزمان والمكان، وإن المعلومات التي ذكرت من الصعب العثور عليها في كتب التاريخ التقليدية، وبالتالي هذه المؤلفات تؤكد على أهميتها لرسم صورة متكاملــة عــن الماضي الإسلامي في القرن الثالث الهجري.

رابعاً – اللباس والطعام.

يعد الحديث عن اللباس والطعام ذو صلة وثيقة بالمستوى الحضاري للأمة ، لأنه لا يــدل فحسب على مدى الرقي الذي بلغته الحياة ومفرداتها من ثروات وصناعات وتجــارات ، وإنمــا يجسد أيضاً صورة للفئات الاجتماعية وما بينها من تباين ينعكس أثره على كل مفردات الحياة ولا سيما اللباس والطعام ، ويلاحظ من خلال القراءة الأولية لأهم كتب الرحالة فــي القــرن الثالــث الهجري ، أن المعلومات عن الطعام تبدو شحيحة قليلاً ، مقارناً بالمعلومات الوفيرة عن اللباس ، وسيحاول هذا المبحث توضيح ذلك :

أ–اللباس .

أورد ابن الفقيه معلومات كثيرة عن اللباس في المشرق الإسلامي، إذ يقول: "إن لأهــل السوس[٢] خاصة وجند يسابور حذق في اتخاذ أنواع الثياب من الحرير والديباج، ولأهــل الــري الأكسية الطرازية(٣) والطيالسة البيض السرية، والثياب المُنيرَّة، ولأهل أصبهان الثياب المرويــة

---

[١] التاجر : عجائب الدنيا، ص ٣٣ ، ٥٧ .

[٢] السوس : بلدة في خوزستان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

[٣] الطرازية : هي ما ينسج من الثياب للسلطان والطراز علم الثوب ؛ إبراهيم: المعجم العربي ، ص ٣٠٢ .

والعتابية والملاحم[1] العجيبة والحلل الأبريسمية المنسوجة وغير المنسوجة"[2]. "ولأهل فارس الثياب الجبائية[3] والسينيزية[4]، ولأهل طبرستان والديلم وقزوين حظ من عمل الأكسية والأملية[6] واتخاذ الشستانك[7] والمناديل[8]، وأشياء كثيرة من أنواع ثياب القطن والصوف والإبريسم والكتان"[9].

كماتحدث اليعقوبي عن تفاصيل مهمة في لباس الخلفاء العباسيين، إذ يقول: "أن الخلفاء كانوا يلبسون السواد([10]) والقلنسوة[11]، وفي عهد الخليفة المعتصم بالله ، الذي غلب عليه التشبه بالعجم ، فلبس الثياب الضيقة الأكمام فضيق الناس أكمام ثيابهم، ولبس الخفاف[12] والشاشي[13] المربعة ، وكان أول من لبس شاشية مربعة فلبسها الناس تشبهاً به ونسبت إليه"[14].

---

[1] الملاحم : نوع من الثياب الحريرية البيضاء؛ مسعود: الرائد معجم لغوي ، ص ٧٦٦ .

[2] ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ٢٥٣ ،٢٥٤ .

[3] الجبة: هي ثوب طويل واسع الكمين، يلبس فوق الثياب أي أنها ثوب خارجي؛ مسعود: الرائد معجم لغوي، ص٢١٧.

[4] السينيزية: نوع من الثياب تنسب إلى بلد على ساحل بحر فارس قرب البصرة ؛ الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٠٠ .

[5] الرويزية : ثوب أخضر يلبسه المشايخ والعلماء ظهر في بداية العصور الإسلامية ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٠٧ .

[6] الملاءة : ثوب من قطعة واحدة ذو شقين متضامين ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٧٦٤ .

[7] الشستانك: هي نوع من أنواع المناديل القطنية؛ الإربلي(ابن المستوفي): تاريخ أربيل ، د.د، د.م، د.ت، ص٦١٤.

[8] المنديل : قطعة النسيج التي كانت تستخدم لتجفيف اليدين بعد الأكل أو توضع على الصدر عند الجلوس على مائدة الطعام ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٤٨١ .

[9] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٤ ،٢٥٥ .

[10] السواد : هي الجبة السوداء التي كان يلبسها القضاة والأعيان من رجال الدولة في العصور الإسلامية ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٢٤٨ .

[11] القلنسوة : هي قبعة أو غطاء للرأس ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٤٠٢ .

[12] الخفاف : نوع من الأحذية الجلدية يلبس فوقها حذاء آخر ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ١٥٢ .

[13] الشاشي : لباس على هيئة العمامة يلف عليه الشاش ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٢٥٢ .

[14] اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٣، ص ١٧٩ ؛ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم، ص ٢٠٥ ــ ٢٠٨ .

نستنتج من النص السابق أنه كان للعنصر التركي في عهد المعتصم بالله تأثير كبير في الحياة الاجتماعية وكانت قصور الخلفاء والأمراء تأوي الكثير من الجواري التركيات حيث نشرن فن التجميل وابتكار الأزياء في المجتمع الإسلامي وساعدت على إظهاره والتأنق في الملابس .

في عهد الخليفة المتوكل يقول اليعقوبي :" أنه أثر لبس الثياب الملحم على جميع الثياب فكان لباسه ولباس كل من في داره من كبير وصغير ، وارتفع ثمن الملحم في أيامه لجوتها وفخامة إتقانها"[١].

أما في عهد الخليفة المستعين[٢]، يقول اليعقوبي :" أنه أحدث تغيراً في الملابس فصغر القلانس بعد أن كانت طويلة ، وأمر بلبس الأكمام الواسعة التي أصبح عرضها ما يقارب الثلاثة أشبار أو نحوها"[٣].

لقد ظهر بعض الترف والبذخ في الملابس ، فقد كان نساء الخلفاء يلبسون الوشي الغالي الثمن، حتى بلغ ثوب الوشي إلى خمسين ألف دينار ، وأشار اليعقوبي إلى أول من اتخذ رفيع الوشي كانت أم جعفر[٤] بنت جعفر بن المنصور، وهي أول من اتخذ القمص اللؤلؤ مفصلة بالجواهر وشمع العنبر، وتشبه الناس بأم جعفر في جميع أفعالها[٥].

أما لباس أهل الذمة (اليهود والنصارى)، فذكر اليعقوبي أنهم كانوا يلبسون الطيالسة العسلية، ويتم إجبارهم على ذلك، لكي يتم تمييزهم عن المسلمين[٦]، فقد كانت الدولة العباسية في بعض الأحيان تصدر أوامر وتعليمات حول تحديد نوع اللباس وأشكاله وبخاصة طبقة أهل الذمة،

---

١ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٩ .

٢ المستعين: هو أحمد بن محمد بن المعتصم بويع في اليوم الذي توفي فيه المنتصر ٢٤٨هـ /٨٦٢م ، ولم يكن يؤهل للخلافة ولكنه لما توفي المنتصر أستوحش الأتراك من ولد المتوكل وخشوا سوء العاقبة فأشار إليهم أحمد بن الخطيب أن يبايعوا المستعين فبايعوه، وأستمر في الخلافة إلى سنة ٢٥١هـ / ٨٦٥م ، ثم قتل سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٦م ؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٣ ، ص ٢١٩ ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٥ .

٣ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٩ .

٤ أم جعفر : زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور ، أسمها أمة العزيز ، ولقّبها جدها أبو جعفر المنصور زبيدة ، لنضارتها ، توفيت سنة ٢١٠هـ /٨٢٥م ؛ اليعقوبي ، مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٦ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٣ ، ص ١٢٢ .

٥ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٦ .

٦ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٣ ، ص ٢١١ .

يبدو أن فرض هذه الأوامر كانت متعلقة بهوى الحاكم، لأن هذا لم يكن قاعدة ثابتة طيلـــة العصر العباسي. كما أشار اليعقوبي إلى لباس الخدم (الجواري والغلمان)، الذي كـــان يتـــألف عموماً من الأقبية[١]، والمناطق[٢] القطنية أو الصوفية[٣].

تحدث سليمان التاجر عن لباس الهنود قائلاً :" وفيها خلق كثير عراة الرجال منهم والنساء غير أن عورة المرأة ورقاً من ورق الشجر))، وقال أيضاً:"وهم قوم سمر يلبس كل واحد مـــنهم فوطين"[٤].

أما الحلي عندهم فقد قال:" أهل الهند أشبه بالعرب في اللباس والدواب .... ، وأهـــل الهند يلبسون فوطتين ويتحلون بإسورة الذهب والجوهر نساء ورجال[٥]، وذهب ابن الفقيه إلى ذلك فقال: يلبسون القراطين[٦] ويتحلون بإسورة الذهب الرجال والنساء"[٧].

يلاحظ هنا أن الرحالة لم يغفلوا أن يتحدثوا عن أمور قد تبدوا عادية، ولكن بمكان آخـــر تظهر هذه المعلومات أهمية كبيرة في التعرف على الكثير من التفاصيل مثل التفـــاوت الطبقـــي والتنوع الثقافي للقرن الثالث الهجري.

ب-الطعام.

كان أهل بغداد يمكثون في أحد المطابخ ويأكلون ويستحضرون شيئاً من دكاكينهم ، وقـــد وصف ابن الفقيه ، في أحد مقاماته أكلة أكلها في أحد الأماكن، وكانت الأكلة بعشرين درهماً وتعد هذه الأكلة من المطابخ الشهية واللذيذة في تلك الفترة، ويذكر أن الطباخون في ذلك العصر أيضاً يعتنون بمظهر طبخهم وتأثيره عليها[٨] .

---

١ الأقبية : هي ثوب مفتوح من الأمام ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٣٧٨ .

٢ المناطق : هي حزام يشد على الوسط ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٤٩٦ .

٣ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٦ .

٤ الفوط : ثوب قصير غليظ يكون مئزراً يجلب من السند ؛ إبراهيم : المعجم العربي ، ص ٣٦٤ .

٥ التاجر : عجائب الدنيا ، ص ٣٣ ، ٤٠ ، ٥٩ .

٦ القرط: هو ما يعلق في شحمة الأذن من لؤلؤة أو درة أو نحوها ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٦٢٧ .

٧ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ١٥ .

٨ ابن الفقيه : بغداد مدينة السلام ، ص ١٨٥.

وتحدث ابن رسته عن أحد أطعمة الخلفاء وهو العسل المانيّ الخالص النقي الذهبي الجوهري، الذي إذا قطر على الأرض منه قطرة لم تأخذ منها ولم تعطها، الذي كان يجلب من مدينة أصبهان(١).

وقد أشار ابن الفقيه إلى طعام الفقراء الذي كان يتألف عموماً من خبز الأرز والصحناء(٢). وعن طعام الهنود يلاحظ أنه قد تباينت الآراء بين الرحالة في هذا الجانب ، فسليمان التاجر يقول:" أهلها يأكلون الناس أحياء"(٣)، وابن الفقيه يقول :" الهند لا يأكلون الحنطة إنما يأكلون الأرز ويمنعون في الملازمة الطعام والشراب أربعة أيام ، وأهل الهند يقتلون ما أرادوا أكله ولا يذبحونه"(٤)، وذهب ابن رسته إلى ذلك فقال: " الهند يأكلون الأزر الأبيض والسمك"(٥)، أما ابن خرداذبة فقد قال: "وطعامهم الموز والسمك الطري والنارجيل"(٦).

لعل ما ذكره الرحالة ليس عاماً في كل مدن الهند ، ويبدوا أن هناك مدن معينة تعتمد في طعامها الأساسي على لحوم البشر ، والبعض الأخر يعتمد على الأرز ، وهناك من طعامهم السمك والموز والنارجيل ، فكل مدينة لها ما يميزها عن الأخرى .

أثبت الرحالة المسلمون لا سيما ابن الفقيه واليعقوبي براعة فائقة في طرح معارفهم بأسلوب شيق ، وتنوعت اهتماماتهم في وصف لباس ونوعية طعام سكان المشرق الإسلامي ، وفي نفس الوقت لم تخل كتابات بقية الرحالة عن الحديث في هذا الشأن ، بالتالي فإن هذه المعلومات شكلت دون شك رافداً مهماً تلقفته كتب الرحلات لتتضمن علماً وفيراً يستزيد به كل قارئٍ ومطُلعٍ عليها .

---

١ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٧ .

٢ الصحناء: هو السمك الصغير المملح ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي، ص ٤٩٠ ؛ ابن الفقيه: مختصر كتاب البلدان، ص ١٩٠.

٣ التاجر: عجائب الدنيا، ص ٣٣ .

٤ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٤ .

٥ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٣٧ .

٦ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٦٦.

يلاحظ غياب ذكر الأعياد والاحتفالات عند أغلب الرحالة ربما لأن زيارة أغلبهم لن تتزامن مع قيام الأعياد والاحتفالات، وباعتبار المرأة المسلمة كانت أغلب وقتها داخل المنزل، غاب ذكرها في كتب الرحالة خلال القرن الثالث الهجري.

خامساً – المراكز العلمية ودورها في النشاط الثقافي حسب كل إقليم.

رغم حالة الانقسام السياسي ،فقد انتشرت المراكز العلمية انتشاراً واسعاً ، وتعد المراكز العلمية من المنارات الثقافية التي أسهمت بدور كبير في إثراء الحضارة الإسلامية ، وبقراءة لأهم الرحالة والجغرافيين خلال القرن الثالث الهجري ، سيكون هذا المبحث محاولة لمعرفة أهم المراكز العلمية في المشرق الإسلامي ودورها في النشاط الثقافي حسب كل إقليم .

لا بد من الإشارة إلى أن هذا المبحث أستند على كتابات الرحالة(ابن الفقيه وابن رسته واليعقوبي)، فقط، أما بقية الرحالة، لم يذكروا شيئاً عن المراكز العلمية في بلدان المشرق الإسلامي، ربما منعاً للتكرار فأطروا إلى تجنب ذكرها.

أ – البصرة والكوفة.

أسُست مدينتا البصرة والكوفة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[١](رضي الله عنه)، ولم يكن يمض عشرون عاماً على إنشاء هاتين المدينتين حتى عظم شأنهما وصارتا من أهم مراكز العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً وثقافياً وعلمياً.

لقد ذكر ابن الفقيه أنه ظهر في هاتين المدينتين حركة أدبية وثقافية ونبغ فيهما العديد من الفقهاء والعلماء والأدباء والفلاسفة[٢]، من أمثال: محمد بن الحسن الفقيه [٣]، كما أشار ابن الفقيه أنه يروى عن أمير المؤمنين أنه قال: الكوفة كنز الإيمان وجمجمة الإسلام وسيف الله[٤].

---

[١] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٦٤ ، ١٨٧ ؛ اليعقوبي : البلدان ، ص ٤ .

[٢] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٦٩ ، ١٩٠ .

[٣] محمد بن الحسن الفقيه : ابن فرقد ، العلامة فقيه العراق ، أبو عبد الله الشيباني الكوفي ، صاحب أبي حنيفة ، ولد بواسط ، ونشأ بالكوفة ، وأخذ عن أبي حنيفة بعض الفقه ، وتمم الفقه على القاضي أبي يوسف ، توفي في الري سنة ١٨٩هـ /٨٠٤م ؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء ، ج٩ ، ص ١٣٤ .

[٤] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٦٣ .

ذكر اليعقوبي أنه كان في مدينة البصرة نحو سبعة آلاف مسجد[١]، كلها كانت تزخر بالعلماء الأعلام يجلسون حولهم طلبة العلم يتحلقون، وقد أتوها من أقطار الدنيا، وإلى جانب العلماء كانت المساجد أيضاً عامرة بالعباد والنسّاك، وأهل التقوى والصلاح . وقد دارت مفاخرات كثيرة بين البصريين والكوفيين ، كمفاخرات الشعراء والأدباء والخطباء ، فأبو العباس السفاح[٢]، كان ينصب نفسه حكماً بين البصريين والكوفيين ، ويستمع بإمعان لمناظراتهم[٣] ومحاوراتهم ومناقشاتهم ، ولا يستطيع أن يخفي تعصبه للكوفيين ، فكان يناصرهم ويميل إلى آرائهم ، وقد أشار ابن الفقيه إلى أنه كان يمدحهم في ختام المناظرة إذ يقول :" الكوفة بلاد العرب ووجه العراق ومبزغ أهله"[٤] .

وكان سبب مناصرته للكوفيين أنهم كانوا من أنصاره، ذلك لأنهم نصروه لما قام لطلب الخلافة، فكان يقربهم دون البصريين .

ب – بغداد.

كانت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية في القرن الثالث الهجري، والذي ساعد على ذلك، اهتمام الخلفاء وكبار رجال الدولة بنقل الكتب الفارسية واليونانية إلى العربية .

يعد العصر العباسي الأول عصر الترجمة الذهبي بلا منازع، وبدايتها كانت زمن الأمويين حيث انصبت على نقل الكتب العلمية إلى اللغة العربية، كالكيمياء والطب والنجوم ، بينما ظلت بعيدة عن الإنسانيات والإلهيات اليونانية حتى العصر العباسي .

وفي العصر العباسي الأول كان المترجمون ينقلون من اليونانية إلى السريانية ومنها إلى اللغة العربية، ولم يكن هؤلاء المترجمون من المتمكنين من العربية، ولكنهم أسهموا إسهاماً كبيراً في تكوين المصطلحات العلمية والفلسفية وبعضها لا يزال مستعملاً إلى اليوم.

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ١١٨ .

[٢] السفاح : هو أول خلفاء بني العباس ، أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، ولد سنة ١٠٨هـ /٧٢٦م ، بالحميمة من ناحية البلقاء ، ونشأ بها ، وبويع بالكوفة ، وتوفي سنة ١٣٦هـ /٧٥٣م ؛ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٠٤، ٢٠٥ .

[٣] المناظرة: هي النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشيئين إظهاراً للصواب؛ الجرجاني(علي بن محمد ت: ٨١٦هـ /١٤١٣م): معجم التعريفات، تح : محمد المنشاوي، دار الفضيلة ، القاهرة ، د.ت، ص١٩٥.

[٤] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ١٧٣ .

كما يعد الخليفة أبو جعفر المنصور هو من أقام الترجمة من كبوتها، وذكر اليعقــوبي أن المنصور كان أول خليفة ترجم الكتب العجمية ونقلها إلى اللسان العربي، وفي أيامه ترجمت كتب أرسطاليس[١]، وكتاب المجسطي[٢]، وكتاب إقليدس[٣]، وسائر الكتب العجمية في النجوم والحساب والطب والفلسفة، ونظر فيها الناس[٤] .

لقد ظهرت صناعة الورق ، مع ازدهار حركة التأليف والترجمة ، وكانت بغداد تتمتع في ذلك الوقت بثراء فكري منقطع النظير ، كثرة معه حركة التأليف بشتى صورها ، مما أدى إلــى انتشار الوراقة وكثرة الوراقين المعنيين بإخراج هذه المصنفات، وانتشــرت دكــاكين الــوراقين انتشاراً واسعاً في بغداد ، ويبين اليعقوبي أنه يوجد في بغداد نحو مائة وراق[٥]، والمهتمون بالحياة الثقافية يترددون على هذه الدكاكين للقراءة أو لشراء ما يلزم من الكتب والمصنفات .

كما نمت الحركة الفقهية في بغداد نمواً كبيراً، ونبغ فيها الكثير من علمــاء المــذاهب المختلفة ، كما اشتهرت بكثرة المساجد ودور العلم فيها، وقد أشار اليعقوبي إلى أنه يوجــد فيهــا أكثر من ثلاثين ألف مسجد[٦]، كلها كانت تزخر بالعلماء وطلبة العلم ، ونجد العلماء وطلبة العلــم المخلصين يأتونها لطلب العلم من أربابه حتى غدت ولفترة طويلة من أهم المراكز العلميــة فــي الدولة الإسلامية ، وكان الخليفة المأمون يجالس المتكلمين والفقهاء والأدباء ويقدمهم من البلــدان ويجري لهم الأرزاق[٧].

يلاحظ في كلام اليعقوبي انه يوجد فيه بعض المبالغة من حيث عدد المساجد في مدينة بغداد.

---

١ أرسطاليس : هو بن نيقوماخس الجهراسيني ، كان تلميذاً لأفلاطون ومن كتبه : المقولات ، الجدل ، الخطابة ، السماء والعالم ، الكون والفساد ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٦٤ .

٢ المجسطي : هو كتاب في علم النجوم والحركات ألفه بطليموس وعربه حنين بن إسحاق ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ١٥٦ ، ١٧٣ .

٣ إقليدس: هو من الفلاسفة الرياضيين ، وهو إقليدس بن نوقطرس بن برينقس، وهو أقدم من أرشميدس وغيره ، ومن أهم وأشهر كتبه : كتاب إقليدس في الحساب؛ ابن النديم، الفهرست، ص ٣٧١ ؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ١٥٦ .

٤ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٣ .

٥ اليعقوبي: البلدان ، ص ١٣ .

٦ اليعقوبي: البلدان، ص ١٨ .

٧ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم ، ص ٢٠٦ .

ت – أصبهان والري.

كانت هاتين المدينتين من أهم المراكز العلمية في شرق الدولة الإسلامية، ولتلــك الــبلاد إرث ثقافي مهم، فهم أهل علم وثقافة سابقة، ولكن الله سبحانه وتعالى أبدلهم بالإسلام خيراً فبرزوا علماء وفقهاء ومحدثين وأدباء فيهن كما كانوا بثقافتهم السابقة .

قال ابن رسته في مدينة أصبهان: " وأهلها من الأشراف أصــحاب المــذاهب الحميــدة والأفعال البديعة وما كان عندهم من المباهاة والحرص على طلب المعالي والمباراة، الذين كــانوا ينزلون الأطراف ومنازلهم به قائمة وآثارهم باقية وهي على جلالتهم وسعة نعمتهم دالة"[١] .

وذكر اليعقوبي أنه يقال أن سلمان الفارسي[٢] رحمة الله عليه كان من أهل أصبهان ومن قريــة يقال لها جيان[٣]. وأشار ابن الفقيه أن مدينة الري خرجت العديد من الفقهاء والعلماء ، وتحــوي العديد من مقامات الفقهاء والعلماء ومن أشهر من دفن فيها (محمد بن الحسن الفقيه)[٤]، وغيــره الكثير .

وهناك مراكز علمية لم يتم ذكرها من قبل رحالة القرن الثالث الهجري ، وإنما تم ذكرها فــي كتب الرحلات الأخرى ، ومن أشهر وأهم هذه المراكز (مدينة بخارى)، إذ كانت هذه المدينة من أقوى المراكز العلمية والإسلامية في إقليم ما وراء النهر والعالم الإسلامي، وكانت منارة علميــة تشع بالعلم والعلماء وهي مجمع العلماء والفقهاء وطلاب العلم .

---

١ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٣ .

٢ سلمان الفارسي : سلمان ابن الإسلام ، أبو عبد الله الفارسي سابق الفرس إلى الإسلام ، صحب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام ، وخدمه وحدَّث عنه، كان لبيباً حازماً، من عقلاء الرجال وعُبادهم ونبلائهم؛ الذهبي : سير أعلام النبلاء، ج ١، ص ٥٠٥ .

٣ اليعقوبي: البلدان، ص ٤١ .

٤ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان، ص ٢٦٩ .

فقد قال ابن حوقل في أهل هذه المدينة:" وأهلها يرجعون من الأدب والعلم والفقه والديانة والأمانة وحسن السيرة وجميل المعاملة وقلة الشرط" [١].

وقال القزويني فيهم :" وأهلها أهل الخير والصلاح في الدين والعلم والسماحة"[٢].

يمكن القول أنه كان للرحالة المسلمون (ابن الفقيه ـــ اليعقوبي)، وغيرهم، دور كبير في الكشف الحضاري والثقافي لأقاليم المشرق الإسلامي ، فقد كشفوا عن أهم المراكز العلمية التي كان يتم التدريس فيها، وعن أهم المنابع التي استقى طلبة العلم منها علومهم ومعارفهم الرفيعة، كل ما سبق يدل على أهمية الرحلة التي كانت وسيلة التواصل الأقوى في التعرف على الأخر.

سادساً – الحركة العمرانية وتبايناتها ما بين منطقة وأخرى.

تعد العمارة أحد أهم المظاهر الحضارية لأية أمة من الأمم، وفي أي بلد دخل فيه المسلمون، تركوا بصماتهم المعمارية عليه، وأضافوا له الكثير في هذا المجال، وقد انتشرت العمارة الإسلامية في جميع أقاليم المشرق الإسلامي فشملت مدناً ومناطق ذات حضارات متميزة، وطبعت أغلب هذه المدن والمناطق سماتها المحلية الخاصة على النماذج البنائية للعمارة الإسلامية ، كما تباينت هذه العمارة في أقاليم المشرق ما بين منطقة وأخرى في نماذج عدة، وبقراءة لأهم الرحالة والجغرافيين خلال القرن الثالث الهجري، سيكون هذا المبحث محاولة للحديث عن الحركة العمرانية وتبايناتها ما بين منطقة وأخرى في بلدان المشرق الإسلامي وفق ما يلي:

أ – العراق.

لما استقر الأمر للعباسيين، أخذ خلفاؤهم الأوائل، كثيراً من نظم الفرس، وتقاليدهم فشيدوا العديد من المدن والقصور، وحذا حذوهم أكثر الخلفاء من بعدهم، وتبعهم في ذلك القواد، والأمراء، والوزراء، ورجالات الدولة .

---

[١] ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي ت : ٣٦٧هـ /٩٧٧م) : صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢م ، ص ٤٠٣ ،٤٠٤ ؛الزيدي (رياض خليل هندي): روايات الرحالة والبلدانيين في بلاد ما وراء النهر بين القرنين الرابع والسابع الهجريين / العاشر والثالث عشر الميلاديين، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ،لم ينشر ، جامعة بغداد ، ٢٠١٩م ، ص ٣٤٠.

[٢] القزويني (زكريا بن محمد ت : ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م): أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت، ص٥٥٨.

وقد احتلت مدينة بغداد الأهمية الكبرى بين مدن العراق ، نسبة لما اتسمت به من روائع في فن العمارة الإسلامية والعلوم، فقد ذكر اليعقوبي أن أبو جعفر المنصور هو الـذي شـيدها لتكـون حاضرة للخلافة العباسية(١)، "وجعلها مدورة ولا تعرف في جميع أقطار الـدنيا مدينـة مـدورة غيرها"(٢).

لقد وصف ابن رسته مدينة بغداد قائلاً :"وهي مدينة حصينة لها سوران وبين السـورين فصيل وخارج السور خندق قد بني حافتاه بالجص والأجر، ولهذه المدينة أربعة أبواب على كـل باب منها قبة خضراء قد بني حول كل قبة مجلس قد رفع بالأساطين مـن سـاج مطـل علـى بغداد"(٣).

وأشار اليعقوبي إلى أسماء الأبواب الأربعة إذ قال:" الباب الأول يدعى باب خراسان والثاني باب البصرة، والثالث باب الكوفة، والرابع باب الشام٤، وجعل لأبواب المدينة أربعة دهـاليز عظامـاً آزاجاً(٥) كلها ، حول كل دهليز ثمانون ذراعاً كلها معقودة بالأجر والجص"(٦).

المدينة الثانية في الأهمية في العراق هي سر من رأى (سامراء)، إذ ذكر اليعقوبي أنها شيدت سنة ٢٢١هـ / ٨٣٦م ، على يد المعتصم بالله لتكون عاصمة الخلافة العباسية بـدلاً مـن بغداد ، وقام ببناء فيها العديد من القصور والدور، وحملت إليها الغروس من الشام والري، وبنيت دار الخلافة في وسط المدينة(٧).

كما بنى الخليفة المتوكل مدينة الجعفرية ، وبين اليعقوبي أن المتوكل"عزم أن يبتني مدينة ينتقل إليها وتنسب إليه ويكون له بها الذكر فبنى مدينة الجعفرية التي تمتد علـى نهـر دجلـة،

---

١ اليعقوبي: البلدان ، ص ٧ ؛ اليعقوبي : مشاكلة الناس لزمانهم، ص ٢٠٤ .

٢ اليعقوبي: البلدان، ص ٧ .

٣ ابن رسته: الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٨ .

٤ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ، ج٣ ، ص ١٠٩ .

٥ الآزاج : البيت الذي يبنى طولاً ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٤٩ .

٦ اليعقوبي: البلدان، ص ٨ .

٧ اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥ ، ٢٦ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .

وتميزت بتخطيطها الفريد، فكانت مساحتها مستطيلة على خلاف بقية المدن، وبنى فيها العيد من القصور والدور"[١].

أما القصور، فقد تميزت بعظمة بنائها وفخامتها، ومن أشهر هذه القصور، أشار إليه اليعقوبي وهو قصر (الجوسق)، الذي شيده الخليفة المعتصم بالله في مدينة سامراء، إذ كانت أرضه من الرخام ومسقوف بقبة وجدرانه مزخرفة بالجص، كما شيد الخليفة الواثق بالله في سامراء قصر(الهاروثي)، على شط نهر دجلة وجعل فيه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية وأنتقل إليه[٢].

وبنى الخليفة المتوكل قصوراً أنفق عليها أموالاً عظاماً، منها، الشاه، والعروس، والبديع، والغريب، والبرج، وقد أنفق على قصر البرج ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[٣].

أما الجوامع، فكانت أعظم ما شيده المعتصم بالله في سامراء، المسجد الجامع، وقد ذكر اليعقوبي أنه بناه في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق وأتقنه ووسعه وأحكم بناءه وجعل فيه فوارة ماء لا ينقطع ماؤها وجعل الطرق إليه من ثلاثة صفوف واسعة وعظيمة[٤].

ذكر ابن رسته ، أن أبو جعفر المنصور شيد مسجد في بغداد يدعى (المسجد الجامع) ، مبنى بالجص والأجر مرفوع بأساطين الساج ومسَّقف بخشب الساج أيضاً ومزوق باللازورد[٥].

ب – بلاد ما وراء النهر.

ضمت بلاد ما وراء النهر مدناً عدة ، وكان لكل مدينة نمطها الخاص بها ، لكن جميعها تشترك في طرز البناء والتحصينات العسكرية والدفاعية ، من حيث الأسوار المحيطة بالمدن ،

---

[١] اليعقوبي : البلدان ، ص ٨ .

[٢] اليعقوبي : البلدان ، ص ٢٥ ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٣ ، ص ٢٠٨ ؛ البلاذري (أحمد بن يحيى ت : ٢٧٩هـ /٨٩٢م) : فتوح البلدان ، شركة طبع الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٠٠م ، ص ٣٩ .

[٣] اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٣ ، ص ٢١٥ .

[٤] اليعقوبي : البلدان ، ص ٣٢ .

[٥] اللازورد: معدن شهير أجود أنواعه الشفاف الصافي الأزرق الضارب إلى خضرة وحمرة ؛ مسعود : الرائد معجم لغوي ، ص ٦٨٠ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٠٩ .

فقد كانت المدن والقصبات المهمة ، محصنة بالأسوار العظيمة ونقاط المراقبة المنتشـرة علـى الأسوار ، ونستطيع أن نؤكد أن طبيعة المنطقة وعلاقاتها السياسية والعسكرية هي التي تحدد شكل وطراز وطريقة البناء والتحصينات، فالمنطقة التي تشعر بخطر تزيد من تحصـينات أسـوارها وقصورها ودور الدولة ودواوينها وبالعكس .

وقد كانت العمارة في بلاد ما وراء النهر تمثل جانباً من جوانب وحـدة العمـارة الإسـلامية وتنوعها، كما جاء في خصوصية الإقليم من وقوعها على الأطراف، ولهذا كانت عمارتها متينـة وقوية .

لقد شكلت الأسوار السمة المميزة لأغلب مدن وقصبات ما وراء النهر ، فسور مدينـة سمرقند سور عظيم ومهيب، وقد أشار ابن الفقيه إلى أنه "يحيط بهذه المدينة بأجمعها وله اثنا عشر باباً من الباب إلى الباب فرسخ وعلى أعلى الحائط آزاج وأبراج للحرب والأبواب الاثنا عشر من خشب على مصراعان وفي أقصاه بابان آخران وبين البابين منزل للبواب ، فإذا جزت المـزارع صرت إلى الربض وفيه بنيان وربضها والساقية على ستة ألاف جريب، والحائط محـاط علـى رساتيقها وبساتينها والأبواب الاثنا عشر عليها ثم تدخل المدينة وهي على خمسة ألاف جريب"(١).

وذكر اليعقوبي أن مدينة الصغد وجميع بلداتها محصنة ومحاطة بالأسوار ، وأشار أنه يقال عن مدينة أسرشونة(٢) أن فيها أربعمائة حصن، وقال عن مدينة بخارى أنها:"مدينة محصـنة وقويـة ومتينة"(٣).

ب – بلاد فارس.

يعد العمران العسكري الصفة الغالبة لمعظم المنشأة المعمارية لبلاد فارس ، وهذا العمران يتميز بشكل هندسي ومعماري معين يوحي بالقوة والصلابة والتفوق المعماري .

كان الهدف الرئيس لهذه العمائر هو توفير الأمن لسكان المدن من الغارات والاعتـداءات الخارجية ، قال تعالى :﴿ يا أيها الذين آمنوا وخذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً﴾(٤).

---

١ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٢٦ .

٢ أسرشونة : هي كورة عجيبة في بلاد ما وراء النهر و قصبتها مدينة سمرقند ؛ الحموي : معجم البلدان، ج ٣، ص ٤٠٩ .

٣ اليعقوبي : البلدان ، ص ٥٣، ٥٤ ، ٥٨، ٥٩ .

٤ القرآن الكريم : سورة النساء ، الآية ٧١ .

فمن الحذر إقامة التحصينات اللازمة لمنع العدو من الوصول إلى المدن وإلى الناس الأمنين، فقد كانت كل مدينة أو بلدة في بلاد فارس محاطة بالأسوار والقلاع والحصون، ومن أهم المدن التي كانت محصنة تحصيناً تاماً هي مدينة أصبهان، فيذكر ابن رسته أن في سورها مائة برج ولها أربعة أبواب أحدها باب خور والثاني باب اسفيج والثالث باب طيرة والرابع باب اليهودية، وسورها مطلسم من الفأر لا توجد فيه فأرة ولما طلسم من الفأر عدم به حيات أيضاً لأن الحيات إنما تتبع أجحرتها لتزعجها منها ولا تقدر على النقب[١].

وفي مدينة طميش[٢]، يقول ابن الفقيه وابن رسته:" أن عليها سور عظيم ليس يقدر أحد من أهل طبرستان أن يخرج منها إلى جرجان إلا في ذلك الوجه لأن حائطاً ممدود من الجبل إلى جوف البحر من جص وأجر ، وكان كسرى أنوشروان بناه ليحول بين الترك والغارة على طبرستان"[٣].

أشار اليعقوبي أن لمدينة بلخ سوران خلف سور ، فالسور الأول الأعظم الذي يحيط بأرض بلخ له اثنا عشر باباً ، والسور الثاني الذي يحيط بربض المدينة له أربعة أبواب[٤].

وذكر ابن الفقيه أن مدينة أذربيجان "أحيطت بسور عظيم في خلافة الرشيد ، يلف حوله الجند بشكل كثيف ، فلما ظهر بابك[٥] بأرمينية لجأ الناس إليها فنزلوها وتحصنوا بها ، كما أشار إلى أنه يوجد في مدينة قزوين العديد من الأسوار والحصون كان الأهالي يرابطون فيهم ويدفعون الديلم إذا لم يكن بينهم هدنة"[٦].

---

[١] ابن رسته : الأعلاق النفيسة، ص ١٦١ .

[٢] طميش: بلدة في سهول طبرستان وهي أخر حدود طبرستان من ناحية خراسان وجرجان؛ الحموي : معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١ .

[٣] ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٣٠٤ ؛ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٠ .

[٤] اليعقوبي : البلدان ، ص ٥٣ .

[٥] بابك : هو بابك الخرمي ظهر سنة ٢٠١هـ / ٨١٦م في خلافة المأمون وأعلن الثورة على الخلافة العباسية في أذربيجان ، وبعد حروب طويلة أستطاع الخليفة المعتصم بالله القضاء عليه في سنة ٢٢٣هـ /٨٣٧م؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج ١ ، ص ١٨٩ ، ٢٠٠ .

[٦]ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٨٥ .

أما القلاع فحالها حال الأسوار فمدينة الري يقول ابن رسته :((إن لها قلعة عظيمة تقع على قلّة جبل صعب المرتقى ، فإذا صعدت إلى تلك القلعة أطلعت على سطوح الري كلها))(١).

كما وصف ابن خرداذبة قلعة سوس الأهواز(٢) متعجباً:" وهي قلعة فوق قلعة ومثلها على بنائها قلعة سوس الأقصى(٣)"(٤).

لقد اشتهرت بلاد فارس بكثرة الربط في جميع مدنها، إذ شكلت أحد المظاهر الحضارية في فن العمارة في بلاد فارس، ومن أشهر هذه الأربطة، رباط أب آهوان ورباط فراوة (٥)، وكانت هذه الرباطات تبنى بطرق هندسية مختلفة عن بقية المنشأة العمرانية، فهي أشبه بقلعة صغيرة محصنة تحصيناً قوياً جداً، لأنها نقاط الإنذار المبكر للجيش الإسلامي في الأماكن التي تنتشر فيها هذه الربط.

كما كثر في هذا الإقليم بناء القناطر ، وكان أبدع ما في عمائر القناطر طولها الشاهق مما يكسبها العظمة والفخامة، إذ يقول ابن الفقيه:"أن بأرجان قنطرة كبيرة طولها أكثر من ثلثمائة ذراع بالحجارة على وادي أرجان"(٦).

ويقول اليعقوبي:"أن إلى جانب قم مدينة يقال لها كمندان ولها واد يجري فيه الماء بين المدينتين عليه قناطر معقودة بحجارة يعبر عليها من مدينة فينجان(٧) إلى مدينة كمندان"(٨).

كما كان في بلاد فارس العديد من القصور، أشهرها قصر بهرام جور(٩) في مدينة همذان ، إذ يقول ابن الفقيه:"أن هذا القصر كله حجر واحد منقور فيه كتابة بالفارسية من أوله إلى آخره يقرأها من يفهم الفارسية كل خبره أمر عجيب، وفي كل ركن من أركانه صورة جارية"(١٠).

---

١ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٩ .

٢ سوس الأهواز : بلدة في بلاد فارس ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٨١ .

٣ سوس الأقصى : كورة بالمغرب مدينتها طرقلة ؛ الحموي: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٨١ .

٤ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ١٦١ .

٥ ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٧٠ .

٦ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ١٩٩ .

٧ فينجان : تقع في بلاد فارس ؛ اليعقوبي: البلدان، ص ٤٠.

٨ اليعقوبي : البلدان ، ص ٤٠ .

٩ بهرام جور : هو أحد الملوك الأكاسرة بفارس ، ملك ثلاث سنين وثلاثة أشهر ؛ اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص ٢٠٣ ؛ المسعودي : التنبيه والأشراف ، ص ٨٧ .

١٠ ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٢٥٦ .

وتحدث ابن رسته: "أن في قرية الدسكرة[١] قصر من بناء الأكاسرة حوله سور مشرف وليس داخله شيء من البناء له باب واحد مما يلي المغرب[٢]، كما أشار أن الخليفة المتوكل بني في مدينة أصبهان العديد من القصور ، وذلك لأنها اتصفت بطيبة هوائها وصحة أرضها"[٣].

بناءً على هذا يلاحظ أن الحركة العمرانية في بلدان المشرق الإسلامي قد تباينت ما بين منطقة وأخرى ، ففي العراق كانت العمارة يغلب عليها البذخ والترف في جميع المباني العباسية ، وهذا يرجع إلى الاستقرار السياسي والاقتصادي الذي عاشته المنطقة في هذه الفترة ، الذي انعكس إيجاباً على تطور العمارة الإسلامية وازدهارها ، بينما في بلاد ما وراء النهر رأينا أن الدولة العربية الإسلامية اهتمت بتحصين هذه البلاد ، وذلك ببناء الأسوار حول المدن والبلدات ، حفاظاً على تلك البلاد الإسلامية من الاعتداءات الخارجية ، بحكم موقعها على الأطراف .

أما في بلاد فارس فقد رأينا أن العمارة كانت عسكرية معظمها، تألفت من الأسوار والقلاع والأربطة وغيرها، ويمكن القول إن الاهتمام بالعمارة العسكرية في هذا الإقليم جاء من أجل الدفاع والهجوم ولفرض القانون والسيطرة على المدن والأقاليم.

إن الرحلة قد لعبت دوراً هاماً في تنشيط الحراك العمراني بين البلدان ، إذ تعد الرحلة همزة وصل بين مختلف الحواضر العمرانية في المشرق الإسلامي ، مما جعل الناس على تواصل دائم ودراية تامة حول مختلف الفنون المعمارية وتبادل الخبرات فيما بينهم .

إن ما قدم من معلومات قدم لقارئ القرن الثالث الهجري معلومات مهمة على الخارطة الاجتماعية للعالم الإسلامي خلال تلك الفترة من خلال التعرف على المكون الديموغرافي في بلدان المشرق الإسلامي وعلى علاقات المسلمين مع غيرهم من أصحاب الديانات المختلفة كما عرفته على العادات والتقاليد وعلى اللباس والطعام ، إضافة إلى التعرف على أهم المراكز العلمية ودورها في النشاط الثقافي وعلى الحركة العمرانية وتبايناتها حسب كل إقليم ، إذ تعد كتابات الرحالة عن الجوانب الاجتماعية في الأماكن التي مرو بها رافداً فياضاً لدارسي التاريخ الاجتماعي في المجتمعات البشرية ، أما قارئ اليوم فيستطيع من خلال قراءة ما ورد من

---

[١] الدسكرة : قرية في طريق خراسان قريبة من شهرابان ؛ الحموي : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٥٥ .

[٢] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٦٤ .

[٣] ابن رسته : الأعلاق النفيسة ، ص ١٥٤ .

معلومات أن يكون فكرة عن التاريخ الاجتماعي للعالم الإسلامي بالقرن الثالث الهجري ، ولا شك أن هكذا أمور لا توجد في كتب التاريخ العامة أو الخاصة ، والتي انصب اهتمام مؤلفيها على الأحداث السياسية .

خاتمة.

يمكن القول في خاتمة البحث، أن أدب الرحلة شكل عوناً كبيراً لعمل المؤرخ والجغرافي على حد سواء، ولعل من بين أهمية الرحلة لأعمالها هو صقل المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع ، لذلك اختارها معظمهم منهجاً وضرورة علمية وبهذا ساهم الرحالة في توسيع مداركنا حول التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمشرق الإسلامي في القرن الثالث الهجري، بفضل ما أوردوه من معلومات عن طريق اتصالهما بالبلدان والأقوام، ومجاورتهما للعلماء وأصحاب المعرفة بثقافات البشر وتقلبات الأحوال على مر الزمان والمكان.

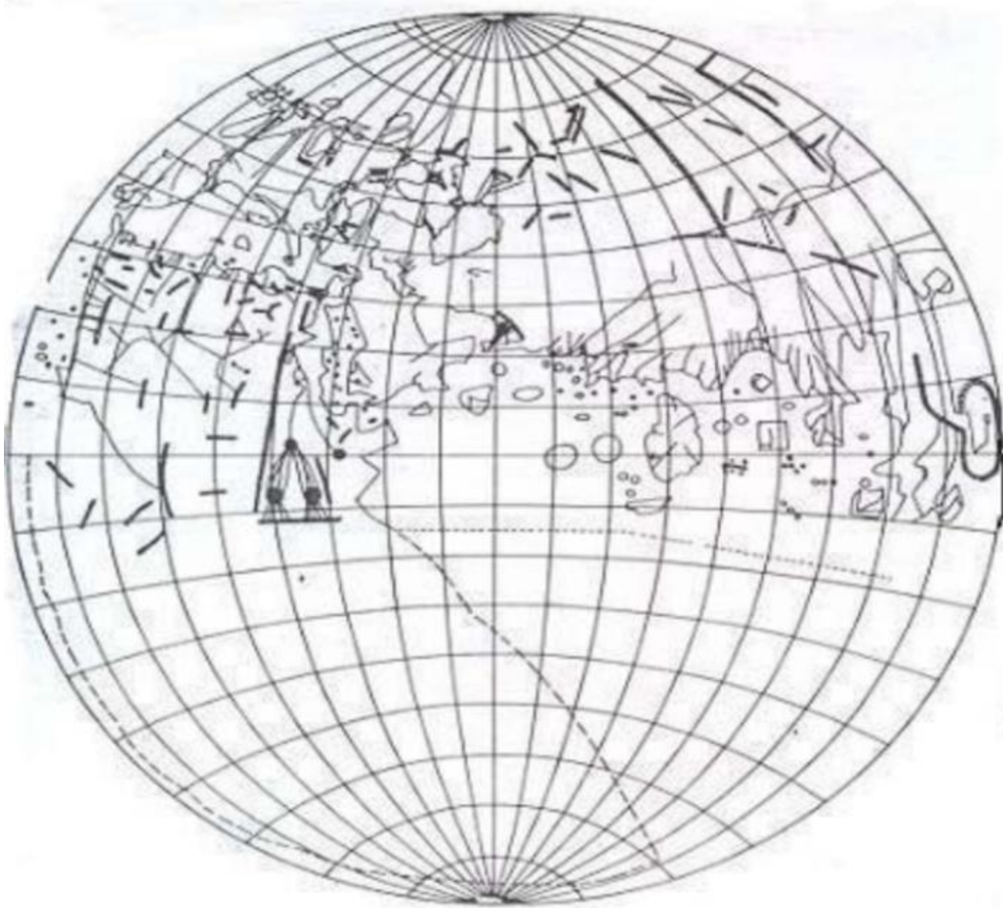
أثبت الرحالة براعة كبيرة في طرح معارفهم العلمية بأسلوب أدبي شيق، وتنوعت اهتماماتهم في وصف الجوانب الاقتصادية بين زراعة وتجارة وصناعة دون أن يغفلوا الجوانب الاجتماعية في وصف الأجناس البشرية وعلاقتهما فيما بينها ووصفوا أيضاً العادات والتقاليد واللباس والطعام بالإضافة إلى حديثهم عن المراكز العلمية والحركة العمرانية في مدن المشرق الإسلامي .

كما كان للتجار وموظفي السلطة دوراً أساسياً في استقصاء أدق المعلومات ، فامتهن التاجر والموظف الرحلة أمثال: سليمان التاجر، وابن خرداذبة، واليعقوبي، حيث ساعدهم دورهم على استقاء المعلومات الدقيقة عن طريق تجارتهم ومناصبهم.

جاءت نصوص الرحالة التي أوردوها في مصنفاتهم عن المشرق الإسلامي متشابهة في بعض الأحيان لأن بعضهم نقل معلوماته من رحالة سبقوه في هذا المجال مع الاختلاف أحياناً في معالجة بعض القضايا .

أظهرت رحلات الرحالة في القرن الثالث الهجري نتائج مصححة في معرفة كثير من الحقائق الغامضة أو التي كانت محدودة على التصور الإنساني من الخرافات والتصورات التي سادت في العصور الماضية .

الملاحق



الخريطة المأمونية[1]

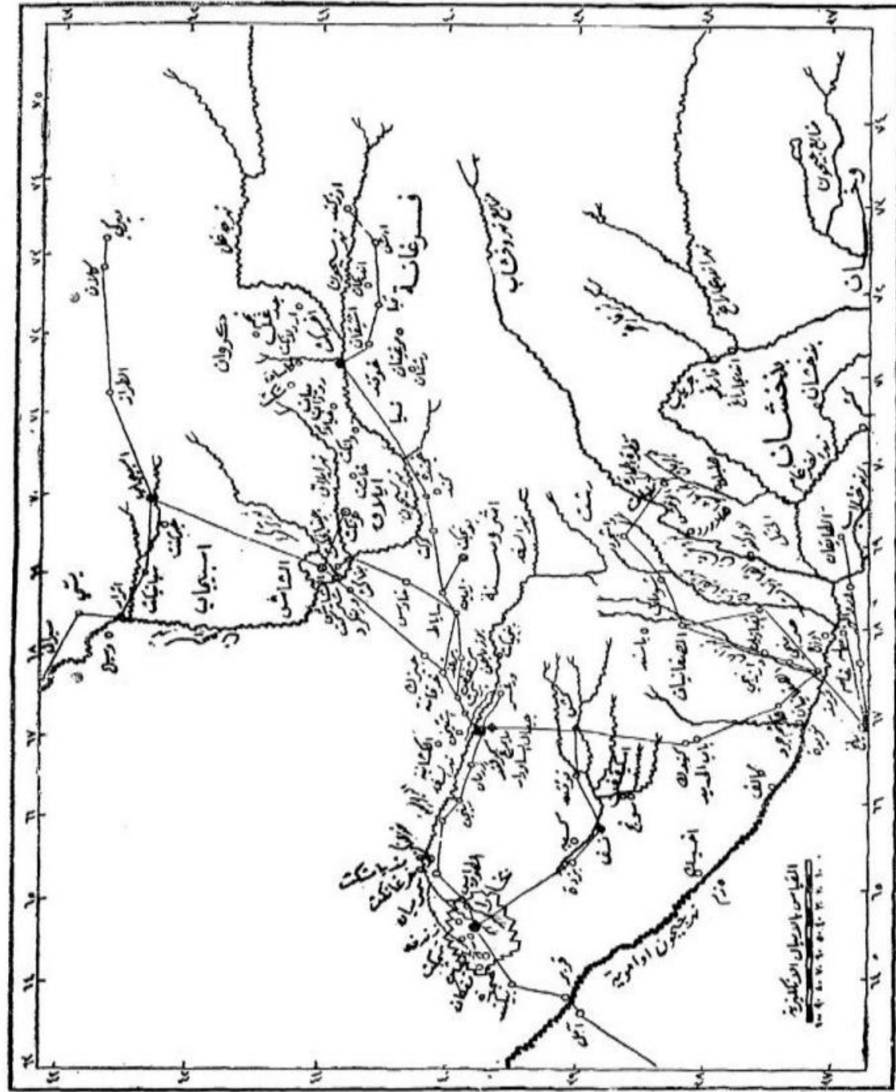
---

[1] سيزكين (فؤاد): الجغرافية الرياضية والكارتوغرافيا عند العرب والمسلمين واستمرارها في الغرب، تر: مازن عماوي، مورلنباخ، ألمانية الاتحادية، د.ت، ص ٨٢.



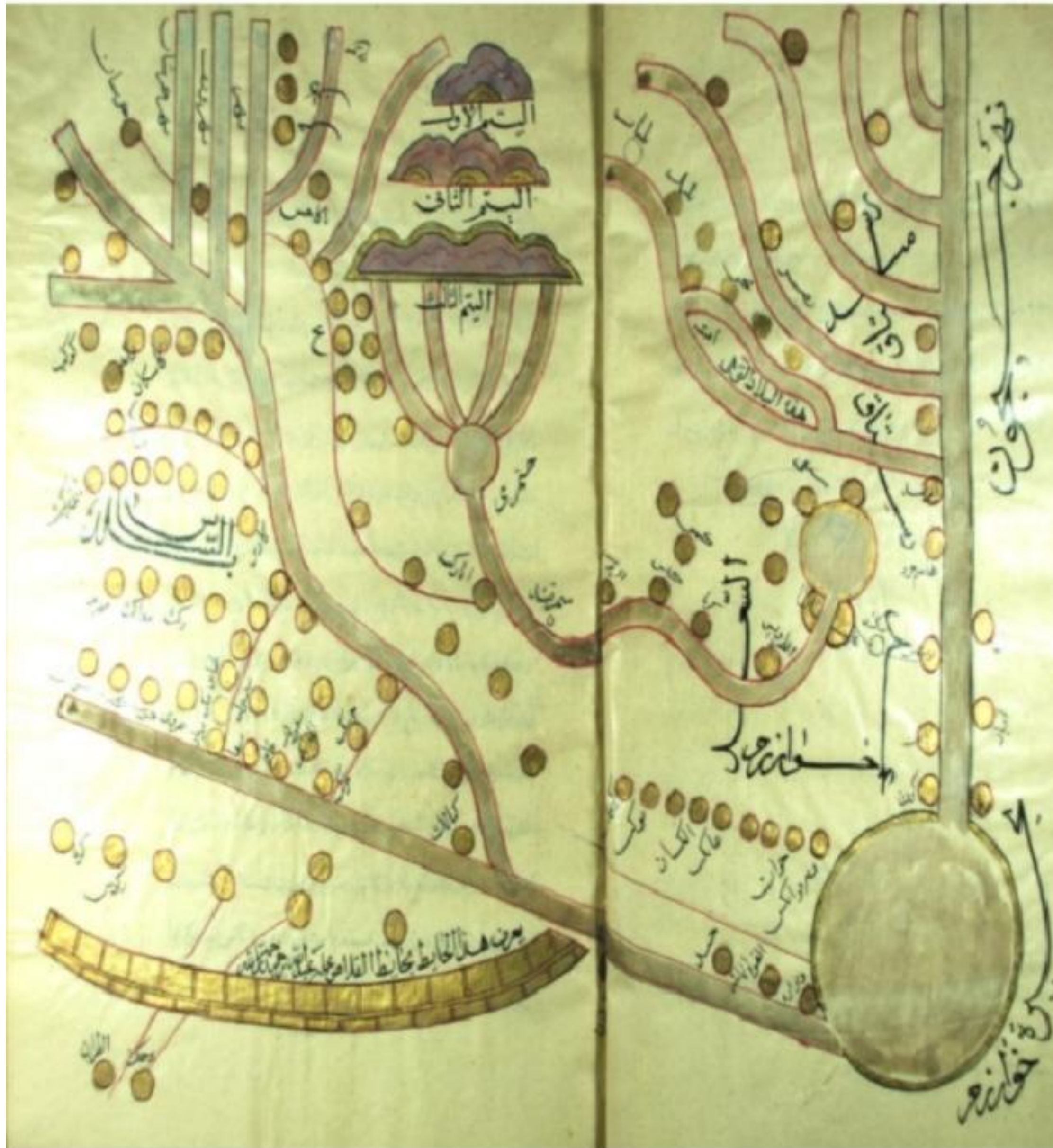
الدولة العباسية ــ بيان أهم الأقاليم وأمهات المدن[1]

[1] عبد الرحمن (محمد نصر) ؛ الدوسري (محمد صقر): تاريخ الدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، جامعة الملك فيصل ، الأحساء ، ٢٠١٦م، ص١٨١.



خارطة أقاليم نهري سيحون وجيحون[1]

[1] لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية، ص٤٧٧.



خارطة بلاد ما وراء النهر[1]

[1] الزيدي: روايات الرحالة، ص ٣٩٧.

عمامة الخلفاء والخاصة[١]



العمامة في العصر العباسي

[١] رشدي (صبيحة رشيد): الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية ، مؤسسة المعاهد الفنية، د.م، ط١، ١٩٨٠م ،ص ٢٩.



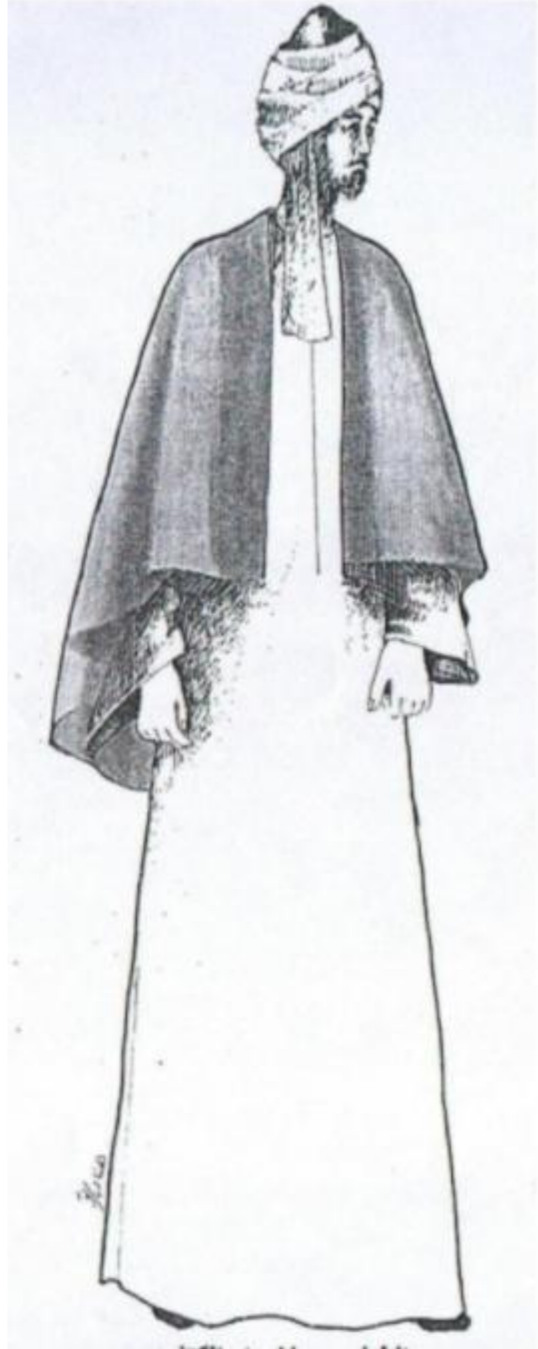
الآزار في العصر العباسي[1]

[1] رشدي: الملابس العربية، ص ٥٤.



القلنسوة الطويلة[1]

[1] رشدي: الملابس العربية، ص ٤٠.



الطيلسان على الكتف[1]

[1] رشدي: الملابس العربية، ص ٥٩.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر

-القرآن الكريم .

- قائمة المصادر :

- ابن الأثير (عز الدين الجزري ت : ٦٣٠هـ /١٢٣٢م) :

١- الكامل في التاريخ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٧م .

٢- اللباب في تهذيب الأنساب ، مكتبة المثنى ، بغداد ، د.ت .

-البخاري (محمد بن إسماعيل ت : ٢٥٦هـ /٨٦٩م) :

٣- صحيح البخاري ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.م ، د.ت .

-البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت ت : ٤٦٣هـ/١٠٧٠م) :

٤- تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها ووارديها ، تح : بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠١م .

-البلاذري (أحمد بن يحيى ت : ٢٧٩هـ /٨٩٢م) :

٥- فتوح البلدان، شركة طبع الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٠٠م .

-التاجر (سليمان ت : ٢٣٧هـ /٨٥١م) :

٦- عجائب الدنيا وقياس البلدان، تح: سيف شاهين المريخي، مركز زايد للتراث والتاريخ، د.م ، د.ت .

-الجاحظ (عمرو بن بحر ت : ٢٥٥هـ/٨٦٨) :

٧- التبصر بالتجارة، د.د، القاهرة ، ١٩٧٧م .

-الجرجاني (علي بن محمد ت : ٨١٦هـ/١٤١٣م) :

٨- معجم التعريفات ، تح : محمد المنشاوي ، دار الفضيلة ، القاهرة ، د.ت .

-بن جعفر (قدامة ت : ٣٣٧هـ /٩٤٨م) :

٩- الخراج وصناعة الكتابة، تح: أحمد حسين الزبيدي ، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨١م .

-ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي ت : ٥٩٧هـ /١٢٠٠م) :

١٠- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تح : محمد عطا ومصطفى عطا ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٢م .

-الحموي (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله ت : ٦٢٦هـ /١٢٢٨م) :

١١- معجم البلدان، دار صادر، بيروت ، د.ت .

١٢- معجم الأدباء ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.م ، ط٣ ، ١٩٨٠م .

-ابن حوقل (أبي القاسم بن حوقل النصيبي ت : ٣٦٧هـ /٩٧٧م) :

١٣- صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢م .

-ابن خرداذبة (عبيد الله بن عبد الله ت : ٣٠٠هـ /٩١٢م) :

١٤- المسالك والممالك ، دار صادر ، بيروت ، ١٨٨٩م .

-الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد ت : ٧٤٨هـ /١٣٤٧م) :

١٥- سير أعلام النبلاء ، تح : شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط١١ ، ١٩٩٦م .

-ابن رسته (أبي علي أحمد بن عمر ت : ٢٩٠هـ /٩٠٣م) :

١٦- الأعلاق النفسية ، د.د ، ليدن ، د.ت .

-السيرافي (أبو زيد الحسن ت : ٣٣٠هـ /٩٤١م) :

١٧- رحلة السيرافي، تح : عبد الله الحبشي، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩م .

-السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن ت : ٩١١هـ /١٥٠٥م) :

١٨- تاريخ الخلفاء، دار ابن حزم ، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م .

١٩- سنن النسائي، تح : عبد الفتاح أبو رغدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، د.ت .

-الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت : ٥٤٨هـ /١١٥٣م) :

٢٠- الملل والنحل، تح : أمير علي مهنا وعلي حسين فاعور، دار المعرفة، بيروت، ط٣ ، ١٩٩٣م .

-الصفدي (صلاح الدين ت : ٧٦٤هـ /١٣٦٢م) :

٢١- الوافي بالوفيات، تح : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار أحياء التراث العربي، بيروت ، ط١، ٢٠٠٠م .

-ابن طباطبا (محمد بن علي ت : ٣٢٢هـ /٩٣٣م) :

٢٢- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، تح : عبد القادر محمد مايو، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٩٧م .

-الطبري (محمد بن جرير ت : ٣١٠هـ /٩٢٢م) :

٢٣- تاريخ الرسل والملوك، تح: أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، لبنان، د.ت .

-ابن الفقيه (أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني ت : ٢٩٠هـ /٩٠٣م) :

٢٤- بغداد مدينة السلام، تح : صالح العلي، وزارة الأعلام العراقية ، بغداد، ط١، ١٩٧٧م .

٢٥-مختصر كتاب البلدان، دار صادر، بيروت، د.ت .

-القزويني (زكريا بن محمد ت : ٧٣٩هـ /١٣٣٨م) :

٢٦- أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، د.ت .

-الكلبي (هشام بن محمد بن السائب ت : ٢٠٦هـ /٨٢١م) :

٢٧- جمهرة النسب ، تح : ناجي حسن، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م .

-الماوردي (علي بن محمد ت: ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) :

٢٨- الأحكام السلطانية، تح : أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م .

-المسعودي (علي بن الحسين ت : ٣٤٦هـ /٩٥٧م) :

٢٩- التنبيه والأشراف ، المكتبة التاريخية ، د.م ، ١٩٣٨م .

٣٠- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، المكتبة العصرية ، بيروت ، د.ت .

-المقدسي (محمد بن أحمد ت : ٣٨٧هـ /٩٩٧م) :

٣١- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ١٩٩١م .

-ابن منظور (محمد بن مكرم ت : ٧١١هـ /١٣١١م) :

٣٢- لسان العرب ، دار صادر ، بيروت ، د.ت .

-ابن النديم (محمد بن أسحاق ت : ٣٨٥هـ/٩٩٥م) :

٣٣- الفهرست ، دار المعرفة ، بيروت ، د.ت .

-اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب ت : ٢٩٢هـ/٩٠٤م) :

٣٤- البلدان ، المكتبة المرتضوية، العراق ، ١٩١٨م .

٣٥- تاريخ اليعقوبي، تح: عبد الأمير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ٢٠١٠م .

٣٦- مشاكلة الناس لزمانهم وما يغلب عليهم ، تح : مضيوف الفـرا ، مجلـة مركـز الوثـائق والدراسات الإنسانية ، مج٥ ، العدد ٥ ، ١٩٩٣م، جامعة قطر، ١٩٩٣م .

ثانياً -المراجع العربية.

-إبراهيم (رجب عبد الجواد) :

١- المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة مـن الجاهليـة حتـى العصر الحديث ، دار الأفاق العربية ، القاهرة ، ط١، ٢٠٠٢م .

-أبوستة (أمل إبراهيم) :

٢- محاضرات في تاريخ الدولة الإسلامية المستقلة ، د.د ، القاهرة ، ٢٠٠٩م .

-أحمد (أحمد رمضان) :

٣- الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة ، د.ت .

-الإربلي (ابن المستوفي) :

٤- تاريخ أربيل، د.د ، د.م ، د.ت .

-أيوب (إبراهيم) :

٥- التاريخ العباسي السياسي والحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط ١، ١٩٨٩م .

-بيضون (جميل) وآخرون :

٦- تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري، دار الأمل، إربـد، ط١، ١٩٨٩م .

-بيطار (أمينة) :

٧- تاريخ العصر العباسي ، منشورات جامعة دمشق ، دمشق ، ط٤ ، ١٩٩٧م .

-التوبخي (محمد) :

٨- المعجم الذهبي، دار العلم للملايين، بيروت ، ط٢، ١٩٨٠م .

-الجعفري (ياسين إبراهيم علي) :

٩- اليعقوبي، المؤرخ والجغرافي، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٠م .

-الجمة (نواف عبد العزيز) :

١٠- رحالة الغرب الإسلامي وصورة المشرق الإسلامي من القرن السادس الهجري إلى القـــرن الثامن الهجري، دار السويدي، الأردن، ط١، ٢٠٠٨م .

-حسن (إبراهيم حسن) :

١١- تاريخ الإسلام السياسي والثقافي والاجتماعي والديني، دار الجيل، بيروت، ط١٤، ١٩٩٦م .

-حسن (حسن علي) سالم (عبد الرحمن) :

١٢- العصر العباسي في العراق والمشرق ١٣٢ – ٦٥٦هـــ ، شركة جزيرة العرب، القـــاهرة ، د.ت .

-حسن (زكي محمد) :

١٣- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨١م .

-حسنين (عبد المنعم محمد) :

١٤- دولة سلاجقة القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، د.م ، ١٩٧٥م .

-حسين (حسني محمود) :

١٥- أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٧٥م .

-حمود (خضر موسى محمد) :

١٦- أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠١١م .

-حميدة (عبد الرحمن) :

١٧- أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٩٨٤م .

-حيدر (محمد علي) :

١٨- الدويلات المستقلة في المشرق ، عالم الكتب ، القاهرة ، د.ت .

-خصباك (شاكر) :

١٩- الأكراد دراسة جغرافية اثنوجرافية ، مطبعة شفيق ، بغداد ، ١٩٧٢م .

-الدخيل (سليمان) :

٢٠- الفوز بالمراد في تاريخ بغداد ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، ط١ ، ٢٠٠٣م .

-الدفاع (علي بن عبد الله) :

٢١- رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة التوبة ، د.م ، د.ت .

-الدوري (عبد العزيز) :

٢٢- تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، د.ت .

٢٣- نشأة علم التاريخ عند العرب، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ، ٢٠٠٥م .

٢٤- النظم الإسلامية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ٢٠٠٨م .

-رشدي (صبيحة رشيد):

٢٥-الملابس العربية وتطورها في العهود الإسلامية، مؤسسة المعاهد الفنية، د.م ، ط١، ١٩٨٠م.

-الريامي (كمال بن محمد) :

٢٦- مشاهير الرحالة العرب ، كنوز للنشر والتوزيع ، القاهرة، ط١ ، ٢٠١٣م .

-الزركلي (خير الدين ت: ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م):

٢٧-الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ٢٠٠٢م.

-زيادة (نقولا) :

٢٨- الجغرافية والرحلات عند العرب ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، ١٩٨٧م .

-السامي (عبد العال عبد المنعم) :

٢٩- جغرافية المدن عند العرب ، د.د ، د.م ، ١٩٧٨م .

-سعد (فهمي) :

٣٠- العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجري دراسة في التاريخ الاجتماعي، دار المنتخب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٣م .

-سعداوي (نظير حسان) :

٣١- نظام البريد في الدولة الإسلامية، دار مصر للطباعة، القاهرة، ١٩٥٣م .

-سرور (محمد جمال الدين) :

٣٢- تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، دار الفكر العربي، د.م ، د.ت .

-شاكر (محمود) :

٣٣- التاريخ الإسلامي للدولة العباسية ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ط٦ ، ٢٠٠٠م .

-الشامي (صلاح الدين علي) :

٣٤- الرحلة عين الجغرافية المبصرة في الكشف الجغرافي والدراسة الميدانية ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٩٩م .

-الشماس (عيسى):

٣٥-مدخل إلى علم الإنسان الانثروبولوجيا ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٤م.

-الصعيدي (عبد الحكيم عبد اللطيف) :

٣٦- الرحلة في الإسلام أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط ١، ١٩٩٦م .

-صلاح (مدني) :

٣٧- تاريخ الدولة العباسية سياسياً وحضارياً، دار المعارف، الرباط، ١٩٧٧م .

-الصيني (بدر الدين) :

٣٨- العلاقات بين العرب والصين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ط ١، ١٩٥٠م .

-ضيف (شوقي) :

٣٩- الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط ٤، د.ت .

٤٠- العصر العباسي الثاني، دار المعارف، القاهرة، ط ٢، د.ت .

-الطائي (سعد هادي حسن) العنبكي (شيماء فاضل عبد الحميد) :

٤١- دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي ق ٣ - ٧هـ\ ٩ - ١٣م ، دار ومكتبة عدنان للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد ، ط ١، ٢٠٢٠م .

-العابد (مفيد رائف محمود) :

٤٢- معالم تاريخ الدولة الساسانية، دار الفكر، دمشق، ط ١، ١٩٩٩م .

-عبد الرحمن (محمد نصر)؛ الدوسري (محمد صقر):

٤٣-تاريخ الدولة العباسية في العصر العباسي الأول ، جامعة الملك فيصل ، الأحساء ، ٢٠١٦م.

-عدوان (أحمد محمد) :

٤٤- موجز في تاريخ دويلات المشرق الإسلامي ، دار الكتب للنشر والتوزيع ، الرياض ، ١٩٩٠م .

-عمارة (محمد) :

٤٥- قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية ، دار الشروق ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣م .

-أبو العلا (إبراهيم عبد المنعم سلامة) :

٤٦- في تاريخ الدولة الإسلامية المشرقية المستقلة عن الخلافة العباسية ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، ٢٠٠٥م .

-العلاق (كاظم ستر الخلف) :

٤٧- إدارة أقاليم المشرق في العصر العباسي الأول ، دار الكتب والوثائق ، بغداد ، ط ١ ، ٢٠١٧م .

-الفقي (عصام الدين عبد الرؤوف):

٤٨-الدول المستقلة في المشرق الإسلامي منذ مستهل العصر العباسي حتى الغزو المغولي، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

-الفيل (محمد رشيد) :

٤٩- أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، الجمعية الجغرافية الكويتية ، الكويت، ١٩٧٩م .

-أبو القاسم (سعد الله) :

٥٠- بحوث في التاريخ العربي الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م .

-قنديل (فؤاد) :

٥١- أدب الرحلة في التراث العربي، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة ، ط ١، ٢٠٠٢م .

-الكيلاني (جمال الدين فالح) :

٥٢- الرحلات والرحالة في التاريخ الإسلامي، دار الزنبقة للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت .

-المدور (جميل نخلة) :

٥٣- تاريخ بابل وآشور، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م .

-مسعود (جبران) :

٥٤- الرائد معجم لغوي عصري، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٧، ١٩٩٢م .

-الموافي (ناصر عبد الرزاق) :

٥٥- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية ، القاهرة، ط ١، ١٩٩٥م .

-النساج (سيد حامد) :

٥٦- مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً ، مكتبة غريب ، الإسكندرية ، د.ت .

<u>ثالثاً-المراجع المترجمة إلى العربية.</u>

-أشتياني (إحسان عباس) :

١- تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية ٢٠٥هـ ١٨٢٠م ، تر : محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٩م .

-باليدييه (آن لوفيفر) :

٢- البحار والمحيطات، تر: زينب منعم ، د.د ، الرياض ، ط ١ ، ٢٠١٥م .

-بروكلمان (كارل) :

٣- تاريخ الشعوب الإسلامية، تر: نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٥، ١٩٦٨م .

-رسكي (مينو) :

٤- الجغرافيون والرحالة المسلمون، تر: عبد الرحمن حميدة ، الجمعيـــة الجغرافيـــة الكويتيـــة ، الكويت، ١٩٨٥م .

-سيزكين (فؤاد):

٥-الجغرافية الرياضية والكارتوغرافيا عند العرب والمسلمين واستمرارها في الغرب، تر: مازن عماوي، مورلنباخ، ألمانية الاتحادية ،د.ت .

-كراتشكوفسكي (أغناطيوس يوليا) :

٦- تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، تر : صلاح الدين عثمان هاشم ، جامعة الدول العربية ، د.م ، ١٩٥٧م .

-لسترنج (كي) :

٧- بلدان الخلافة الشرقية ، تر : بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٥م .

-لوبون (غوستاف) :

٨- حضارة العرب ، تر : عادل زعيتر ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٢م .

-متز (أدم) :

٩- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، تر : محمد عبد الهادي أبو زيد، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٥، د.ت .

-هتنس (فالتر) :

١٠- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، تر: كايل العسلي ، منشـــورات الجامعة الأردنية ، الأردن ، ١٩٧٠م .

رابعاً: -الرسائل الجامعية.

-جوادي (المسعود) :

١- الرؤية المركزية دراسة مقارنة في أنساق الخطابات الرحلية العربية والغربية ، بحث مقــدم لنيل درجة الدكتوراه في الأدب العربي، لم ينشر ، جامعة قاصدي مرباح ، ٢٠١٧م .

-الزيدي (رياض خليل هندي الزيدي):

٢- روايات الرحالة والبلدانيين في بلاد ما وراء النهر بين القرنين الرابع والســابع الهجــريين/ العاشر والثالث عشر الميلاديين، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ، لم ينشر ، جامعة بغداد ، ٢٠١٩.

-العامري (هيام محمد) :

٣- النشاط الاقتصادي في بلاد ما وراء النهر خلال العصر العباسي ، بحث مقدم لنيــل درجــة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي ، لم ينشر ، الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٧م .

-المطيري (فهد) :

٤- التاريخ الاقتصادي للدولة العباسية في العصر العباسي الثاني ، بحــث مقــدم لنيــل درجــة الدكتوراه في الاقتصاد والمصارف الإسلامية ، لم ينشر ، جامعة اليرموك ، ٢٠١٦م .

-نواب (عواطف محمد يوسف) :

٥- كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القــرنين الحــادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية نقدية، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في التــاريخ الإسلامي الحديث، لم ينشر، جامعة أم القرى، ١٩٩٩م .

-الهروط (بلال سالم) :

٦- صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، بحث مقدم لنيل درجة الـدكتوراه فـي التـاريخ الإسلامي، لم ينشر، جامعة مؤتة، ٢٠٠٨م .

خامساً-المقالات :

-الجبوري (حمدية صالح) السويطي (محمد حسين علي) :

١- حدائق الحيوان دراسة في جذورها التاريخية وتطورها خلال العصر العباسي الأول ١٣٢ - ٢٤٧هـ، مجلة كلية التراث الجامعة، العدد ٣٣، ٢٠١١م ، كلية التـراث الجامعـة ، العـراق، ٢٠١١م .

Abstract

This research deals with the study of the Egyptian importance of travel books in the study of the economic and social history of the Islamic East in the third century AH _ ninth century AD، where three chapters were dealt with in this study :

The first chapter dealt with the general conditions of the Islamic East and the circumstances of the activity of travel literature in the third century AH، where it discussed the political and scientific and cultural activities in the Islamic East، and the status of travel in the culture of the third century AH، and the most important travelers of the third century AH. The second chapter dealt with a study of reading the economic history of the Islamic East in the third century AH through the works of travelers، where it discussed agriculture industry، and trade. The third chapter dealt with a study of reading the social history of the Islamic East in the third century AH through the works of travelers، where it discussed the demographic component of the Islamic East ،the nature of the relations between the population components of the Islamic East customs and traditions، clothing، and food. It also discussed the scientific centers and their role in cultural activity according to each region، in addition to the urban movement and its differences between on region and another. .

Syrian Arab Reblic

Ministry of Higher Education and Scientific

Research University of Homs

College of Arts and Humanities

History Department

The Egyptian Importance of Travel Books in the Study of the Economic and Social History of the Islamic East in the Third Century AH_ Ninth Century AD

A thesis prepared for a masters degree in Arab and Islamic historyFaculty University of Homs ،of Arts

Thesis Submitted by

Hassan Satouf Fatrawi

Supervised by Dr:

salman Badr Shahadeh

The year 1446 AH -2025 AD